

جمالية الخطاب القرآنيّ

د. أحمد عطية السّعودي


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

جمالية الخطاب القرآنيّ

الطفيلة مدينة الثقافة الأردنية ٢٠١٤

- جمالية الخطاب القرآنيّ
- د . أحمد عطية السّعودي
- دراسات
- وزارة الثقافة
- الطبعة الأولى ٢٠١٤

عمان - الأردن

ص .ب ١٣٢ - عمان

تلفون : ٤٦٢١٧٢٤

تلفاكس : ٤٦٣٧٠٤١

www.jowirters.org

Email:info@jowiters.org

الطباعة : مطبعة السفير

المملكة الأردنية الهاشمية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (٢٠١٤/٧/٣٤٩٥)

ردمك : ISBN: 978-9957-94-115-4

جمالية الخطاب القرآنيّ

مُدارسة
في إعجاز النصّ والتذوّق الجمالي لآي الذّكر

تأليف
د. أحمد عطية السُّعودي

٢٠١٤

الافتتاح

أَرى التَّفكِيرَ أَدْرَكَه خُمُولٌ

وَلَمْ تَبْقَ الْعَزَائِمُ في اشْتِعَالِ

وَأَصْبَحَ وَعْظُكُمْ مِنْ غَيْرِ رُوحٍ

وَلاَ سِحْرٌ يُطِلُّ مِنَ الْمَقَالِ

وَعِنْدَ النَّاسِ فَلْسَفَةٌ وَفِكْرٌ

وَلكِنْ أَيْنَ تَلْقِينُ الْغَزَالِي

وَجَلْجَلَةُ الأَذَانِ بِكُلِّ حَيٍّ

وَلكِنْ أَيْنَ صَوتٌ مِنْ بِلاَلِ

مَنَائِرُكُمْ عَلَتْ فِي كُلِّ سَاحٍ

وَمَسْجِدُكُمْ مِنَ الْعُبَّادِ خَالِ

(الشاعر : محمد إقبال)

مقدّمة

الحمدُ لله الذي كرّمَ بني آدم بنعمة البيان ، وأنزل قرآناً عربيّاً غير ذي عِوَج ، وجعلَ كتابه في القمة السّامقة من الفصاحة والبلاغة ، وأفضلُ الصّلاة والسّلام على السّراج المنير محمّد بن عبد الله ، وعلى آله المُبجّلين ، وأصحابه أجمعين ، وبعد ؛

فما أُوتي أحدٌ من آلاء سابغة ، وأفاويق سائغة ، كمَنْ أوتي بياناً يقري العين والأذن ، ورُواءً يمتّع الجَنان بسَلْسَل الكَلِم ؛ ولا غرو ، فالفصاحة أجملُ الجمال ، وحُلّة الأدب أزهى الحُلل .

وما انتسبَ قلمٌ للقرآن ، ولا اتصل به نصٌّ إلا أضاء من مِشْكاته أقتمَ حُلكة ، واستحالت الأقلام والنصوص قناديلَ بيانيّة تُهدي إلى النفوس سنا يسكبُ في جوانحها أشهى رحيق :

رحيقِ الصُّور الجماليّة وتفرّدها في آي الذكر الحكيم بما حوتْ من جوامع تزخر بالمعاني الغزيرة ، وما اضطمّت على لطائف بلاغيّة مُستسرّة .

ورحيقِ الخطاب الفنيّ الفيّاضٌ بتنوّع أنماطه من كناية لطيفة ، واستعارة ظريفة ، ومقابلة رائقة ، وتمثيل بارع ، وعذوبة جَرْس .

وقد شَرُفَ هذا الكتاب ؛ إذ اتصل بالعربيّة وكتابها الأكبر ، واتّخذ من منهجها الرّصين الأصيل سبيلاً له ، واتّبع سَنَنها ، واستضاء بمشكاة القرآن ، فجادتْ مُزنُه بهذه المدارسة القرآنيّة التي رَنَّقَتْ بين يديك ، أيّها القارئ الكريم .

ومن أزاهير هذه المدارسة : أشكال التحوّل والمفاجأة في القرآن ، ودلالة

الألوان في آيات القرآن ، والمكانة العلميّة للأعداد الحسابيّة في الآيات القرآنيّة ، والرّحلة إلى الفضاء في القرآن ، وغير ذلك .

وإنَّك أيّها القارئ الحصيف ، إنْ نظرتَ في هذا الكتاب فَراقَك ، فلسوف تُريك عينُ الرِّضا أزاهير متضوّعة ، قد أينعتْ في بساتين المدارسة الجادّة .

وإنْ لم تزكُ رائحتُه ، فلك أنْ تراه بعين السُّخطّ ، فترى فيه أشتاتاً مجتمعات ، وأسماراً وأباطيل ، أو تسمعُ جَعْجعَةً ، ولا ترى طِحْناً ، أو تقول : إنّها خلجان آسنة ، وقيعان لا تُمسك ماء ، ولا تثريبَ عليك!

د . أحمد عطية السُّعوديّ

الصُّورة الجَماليّة

في أشكالُ التَّحوُّلِ والمُفَاجَأة

- تفتيق أكمام البلاغة
- التحوّل الغذائيّ
- التحوّل البيئيّ
- التحوّل الإحيائيّ (البيولوجيّ)
- التحوّل الثنائيّ
- ألوان الصور الجمالية

الصُّورة الجَماليّة
في أشكالُ التَّحولِّ والمُفَاجأة في القُرآن

لا يفتأ القرآنُ الكريم يُفتّق أكمام البلاغة ، ويوسّع مدارك الأذهان ، ولا غرو فهو السِّفر الخالد الذي جاء بالقول الفصل ، والحجّة الدامغة ، فبهرَ أولي الألباب ، وأعجزَ أرباب البيان بما حوى من أشكال التحوّل المتعددة ، وألوان المفاجأة المذهلة .

وهي أشكال وألوان تفترق عمّا أحدثته الحضارة المادية المعاصرة من تحوّلات في محوري المُنْجَز الفكريّ والمُنْتَج اليدويّ ، تلك التحوّلات التي راقتْ أكثر مَنْ في الأرض ، واستحوذتْ على إعجابهم على الرّغم مما يَعتور هذه الحضارة المادية من الخلل ، وفقدان التوازن ، والغيبوبة الروحيّة ، وذلك ظاهر جَلي في تصارع الأفكار ، وانقلاب المفاهيم ، وتلويث البيئة ، والتسابق على التسلّح ، وامتلاك التقنية العالية للهيمنة على مُقدّرات الأمم .

ولو تدّبر هؤلاء ما في كتابِ الله الحكيم من منطلقات منهجيّة أصيلة ، وقواعد سلوكيّة قويمة ، ودعائم حضاريّة فريدة ، لأدركوا زيف هذه الحضارة وعجزها ومدى انحطاطها بإنسانية الإنسان ، وتمريغ كرامته في أوحال العَبث والرذيلة واللّهاث وراء المتاع ، ثمّ لتبينّوا عظمة الله عزَّ وجلَّ وقدرته على الخَلقِ والإحياء والإماتة ، وتحويل الأشياء من حالة إلى حالة مغايرة ، وذلك مالا يستطيعه عباقرة البشر والجانّ ، ولو اجتمعوا له ، وكان بعضُهم لبعضٍ ظهيراً .

ولا ريب أنَّ ما يعنينا من أشكال التحوّل هو التحوّل الماديّ المحسوس الذّي أشارتْ إليه الآيات القرآنيّة في مواضع متفرّقة دلالةً على قدرة الله ووحدانيته وتفردّه في تغيير طبيعة الأشياء من حالة إلى حالة أُخرى مختلفة تماماً في

السّمات والصفات والكيان والبنيان ، وهو تحوّل يشكلّ مفاجأة مذهلة للمتلقي ؛ لما يحمل من عجائب الصيرورة التكوينية الحادثة ، وجمالية الصّورة التعبيرية الباهرة .

ويمكن أن نقسّم التّحوّل الذي أشارتْ إليه الآيات القرآنية إلى الأشكال التالية :

أولاً - التحوّل الغذائيّ:

وهو تحوّل يتعلّق بغذاء الإنسان الذي يشكّل عنصراً رئيساً في بناء خلايا جسمه ، ومدّه بالطاقة اللازمة ، وتعويض أنسجته التالفة ، وقد تمثّل في ثلاث صُور عجيبة دالّة على قدرة الخالق عزَّ وجلَّ ووفرة نِعمهِ على عباده ، واستجابته لدعائهم :

١ . تحوّل جوف الحَجَر الصّلد إلى ماء عَذب:

فقد أشار القرآن الكريم إلى قوم موسى عليه السلام الذين اشتد بهم العطش حتى كاد يُهلكهم ، فاستسقى لهم نبيّهم ، فأوحى الله إليه أن يضرب بعصاه الصخر الأصمّ ، فما لامستْ عصاه هذا الحجر الجامد الذي لا روحَ فيه ولا حياة حتى تدّفق منه الماء بقوّة ، وتفجّرت منه اثنتا عشرة عيناً بعدد قبائل قومه!

فأذهلهم هذا التحوّل المعجز ، وشدَهتهم مفاجأةُ الانفجار ، وهم يرون الماء الزُّلال المنبجس من ثنايا الصخر ، ويسمعون خريره ، ويلمسونه بأيديهم ، ويجدون برده في حلوقهم وأمعائهم بعد أن فقدوه ، ولم يجدوا في صحرائهم القاحلة غير الحجارة الصَّلدة الصماء .

وقد جاءهم أمرُ الله مُفجّرُ الصخر بأن يحافظوا على هذه النعمة الجزيلة بالتمتع برزقه والإقرار بنعمته ، وتجنّب الإفساد في الأرض ، ولكنهم جحدوا وأفسدوا ، وما رعوها حقّ رعايتها :

﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحُجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا

عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُواْ وَاشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ . (البقرة ، آية ٦٠)

وجاء في سورة الأعراف : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ . (الأعراف١٦٠)

وقد صوّر القرآن هذه التحوّل المعجز بأوجز سَرد ، وأبلغ بيان ، وتجلّى ذلك في :

- استعمال الظرف الزماني «إذ» الدَّال على حقيقة وقوع هذه الحادثة في الزمن الماضي ، فإذ عند النحاة ظرف لما مضى من الزمن ، والغالب على المذكورة منها في أوائل القصص في التنزيل أن تكون مفعولاً به بتقدير اذكر ، وتلزم إذ الإضافة إلى جملة اسميّة أو فعليّة ،[1] وهي هنا مضافة إلى جملة فعلية : استسقى ، واستسقاه .
- استعمال الفاء الفصيحة في قوله تعالى : فَانفَجَرَتْ ، فَانبَجَسَتْ ، وهي الفاء الدالة على التحوّل السريع المفاجئ ، وسميّت بالفصيحة ؛ «لأنها أفصحت عن مقدّر ذلك ؛ لأنّه لما ذكر عقب الأمر بالضرب الانفجار دلَّ على أن المطلوب بالأمر الانفجار ، فلذا حذف الضرب دلالة على أنَّ المأمور التزم الأمر ، وسمّيت فصيحة من باب المجاز العقلي» .[2]
- التعبير عن خروج الماء من الصخر بكلمتي الانفجار والانبجاس ، وفيهما دلالة واضحة على قوة تدفق الماء وغزارته ، وإشارة إلى شدّة اندفاعه ، وعلوّ هديره وخريره .

و«الانبجاس من انفجار الماء من السّحاب والعين ، قال العجّاج :

وكيفَ غَرْبَيْ دالج تبجّسا

وانبجستْ عينًاهُ من فَرْط الأسَا»! [3]

- الإشارة العددية الصريحة إلى مجاري الماء ، وتحديدها باثنتي عشرة عيناً بقدر القبائل ، وفي ذلك دلالة جلية على انتظام مساحة الحجر ، وانتظام مائه المتدفق ، وتوزّعه بدقة متناهية بين الشّاربين .

٢. تحوّل رحيق الثمار إلى عَسل شهيّ:

أودع البارئُ سبحانهُ في جسم النّحل مَصنعاً من طراز فريد، وأمدّها بأسرار وخصائص تقتدرُ بها على إنتاج أحلى شراب في الدنيا،(٤) وألهمها أن تبني أقراصها السُّداسية في الجبال والشجر والمعروشات، وتقطفَ ما تشتهي من ألوان الثمار والأزهار حُلوها ومرّها وحامضها، من كُلّ الطرق والجهات ليتحوّل ذلك كلّه بقدرةِ الله إلى شراب شهيّ يُعدّ صيدليّة متكاملة في علاج الأمراض والوقاية منها!

وقد أذهل ذلك الأطباء حين ثبتَ لهم أنّ العسل دواء ناجع لكثير من الأدواء الخطيرة كالسّرطان، وأمراض القلب، والكبد والإشعاعات:(٥)

﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾. (النحل ٦٨-٦٩)

ونلحظ التعبير القرآنيّ الرائع عن حركة النحل الدائبة، وهي تستوطن الجبال الشاهقة، وتتنقّل في المروج الخضراء، وتطير من شجرة إلى شجرة، تمتصّ رحيق الثمار والأزهار، وتخترق المسافات الشاسعة المذللة لخطّ سيرها، وإن هي إلا مدّة يسيرة، فإذا الرحيق قد تحوّل إلى عسل شهيّ لذيذ في أقراص هندسية بالغة الإحكام والروعة.

ونلحظ من خلال التعبير القرآني في الآية:

- أنَّ سلوك النحل وحركتها وعملية تحويل الثمار إلى عسل هو وحي ربّانيّ قد ذُللت لإنفاذه السُّبل، وهُيّئتْ لإخراجه العناصر.
- وأنَّ الآية قد صرّحت بأنَّ الله اختصَّ هذه الحشرة بالوحي دون سائر الحشرات والكائنات الحيوانية الأخرى.
- وأنّ العنصر المتحوّل من الثمار هو شرابٌ متنوّع الألوان، بديع المذاق، ينتفع

منه الناس في غذائهم ودوائهم ، وأنَّ نتيجة استعماله بالقدر الموزون هي الشفاء .

- وأنَّ هذا الشراب - العنصر المتحوّل - آيةٌ باهرة دالة على وحدانية الله وعظيم صُنعه لا يعقلها إلا مَنْ يُعمل عقله في صفحات هذا الكون المنظور . وهي آية متجددة يراها الناس رأي العين في كلّ زمان ومكان تصنعها حشرة صغيرة ضعيفة لا تكاد تساوي قُلامة ظُفر من أظفار بني آدم!

٣. غذاء خاص لامرأة صدّيقة:

إنّه غذاء خاصّ غير متحوّل ، ورزق من غير كدّ ولا جهد امتنَّ الله به على مريم القانتة ، وخصّها بالفاكهة والطّعام صيفاً وشتاء كرامةً لها ؛ ممّا أدهش زكريا عليه السّلام كلمّا زارها في محرابها :

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ إنَّ اللّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ . (آل عمران ٣٧)

وقد تضمّنت الآية الكريمة عدة عناصر جماليّة بديعة إذ :

- صوّرت حركة نبيّ الله زكريا ، وزياراته المتكررة وصِلته لهذه العابدة بإيراد كلمتي : كلّما الشرطية غير الجازمة ، و الفعل الماضي : دخل وهو فعل الشّرط .
- وصفت الطعام بالرّزق دلالة على تميّزه ، وأنّه طيّب مبارك يُنتفعُ به غذاءً وشفاء .
- أكّدت أنَّ هذا الطعام قد تكرّر وجوده عند مريم مرات ومرات من خلال كلمة : كلّما .
- أظهرت دهشة زكريا وتعجّبه لمّا وجدَ الطعام ، وذلك من خلال تساؤله عن مصدره ، وكيفية وصوله إليها ، وحصولها عليه في غير وقته :

«قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا» .

- اشتملت على حوار موجز معبّر بين نبيّ كريم وامرأة صدّيقة .

- أظهرتْ كرامة مريم التي كشفتْ عن مصدر الطعام ، وأرجعت الأمر كلّه لله ، فهو وحده الرزّاق الذي يُطعم ويَسقي ويُعطي بغير حساب .

ثانياً - التحوّل البيئيّ:

وهو تحوّل يتّصل بالبيئة التي تحيط بالإنسان ، ويخصّ القشرة الأرضية ، وما في أحشائها ، وما عليها من زروع وجنَّات وبساتين ، وتجلّى في صور ثلاث :

١- تحوّل وجه الأرض من لون إلى آخر:

فبعد أن تكون الأرض يابسة هامدة يُنزل اللهُ الماءَ من السّماء فتنتعش وتهتزّ ، وتُنبتُ من كُلّ زوج بهيج ، وتكتسي بحُلّة خضراء قشيبة لا تلبث أن تزول بعد النضارة ، وتتشحَ بالاصفرار ، وذلك مَثَل الحياة الدنيا في إقبالها وبهجتها ثمّ زوالها وإدبارها :

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ . (الزمر٢١)

وفي الآية الكريمة تصوير بارع لتحوّل قشرة الأرض من لون إلى لون ، ومن حال إلى حال ، وهو تصوير يستولي على الألباب ، ويعمّق فيها مَثلَ الحياة الدنيا بهذا التمثيل البديع الذي «يكسو المعنى أُبّهة ، ويرفع قدره ، ويحرّك النفوس له ، ويستثير له من أقاصي الأفئدة صبابةً وكلفاً ، ويقسر الطباع على أن تعطيه محبةً وشَغفاً» .(٦)

وإنك لَتحسّ وأنت تتدبّر الآية بمشاهد ماتعة تراها في الينابيع المنسابة ، وقد جرتْ بين الحقول المخضلّة ، والزروع ذات الألوان المتنوّعة ، وما تستجلب من أطيار مغرّدة ، ونسائم عليلة ، ثمَّ يتغيّر المشهد أمام ناظريك ، فترى الزروع النضرة تحولت إلى عصف مأكول وهباء منثور ، وترى الألوان المبهجة استحالتْ صُفرةً كئيبة محزنة ، ثمَّ تنظر فلا ترى شيئاً ، وكأنّها لم تغنَ بالأمس!

٢- تحوّل جنّات جاحدي النّعمة إلى حطام ورماد:

قصّ علينا القرآن قصة الرجلين[٧] المتجاورين اللّذين جعل الله لأحدهما حديقتين من الأعناب والنخل والزّرع ، وفجرَّ بينهما نهراً ، فلم يقابلْ هذه النعمة بالإيمان والشكر ، بل قابلها بالكفر والعُجب والجحود ، فأهلك اللهُ جنتيه ، وتحوّل المنظر الرائع البهيج إلى خراب ودمار ، وفوجئ صاحبهما ؛ فأخذ يُقلّب كفيه ندماً على تفريطه في جنب الله :

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً (وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ . (الكهف٤٢-٤٣)

وكذلك أهلك الله حديقة الأبناء[٨] الذين عزموا على منع الفقراء من الأخذ من ثمارها بأن يجنوا ثمارها في الصباح الباكر ، فكانت المفاجأة لهم حين وجدوا أنّ حديقتهم قد احترقت ، وهم نائمون :

﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ . (القلم ١٩-٢٠)

وفي القصتين يأسرك التعبير القرآنيّ ، وتأسرك الوجوه الجماليّة التي اشتملت عليها الآيات :

- تصوير الجنّات الممرعة المزدانة بالثمار اليانعة ، والفاكهة الشهية ، والمياه الجارية ، وقد تحوّلت إلى يباب وخراب .
- تصوير ما أحدثه التحولّ لأصحابها من مفاجأة لم تخطر على بالهم ، تلك المفاجأة التي هزّتهم هزّاً عنيفاً حين رأوا جنّاتهم ، وهي محطّمة مدمرة قد انقلبتْ سقوفها ، وهُدّمت حيطانها ، وأصبحت كالرّماد الأسود .
- تصوير ندمهم بالكناية اللطيفة ، وهي كناية عن صفة في قوله تعالى : «فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ» ، فقد قلبوا أكفّ الحسرة ، وقرعوا سنّ الندم ، ولات حين مندم!

٣- تحوّل عالي الأرض إلى سافلها:

حدث هذا التحوّل الخطير في أرض قوم لوط الذّين كانوا يكفرون بآيات الله ، ويكذّبون رسوله ، ويعملون الفواحش والخبائث ، ويأتون في ناديهم المنكر ، ويأتون الذكور ، ويراودون الضيوف ، فأهلكهم الله ، وقلب عالي قراهم سافلاً ، وأمطر عليها حجارةً ملتهبة متتابعة ؛ ليكونوا لمن خلفهم آية :

﴿فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ . (هود٨٢ - ٨٣)

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ * فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ . (الحجر٧٣-٧٤)

والسياق القرآنيّ يفيض بعناصر الجمال في تصوير هذا التحوّل الهائل :

- فقد عبّر بالكناية عن العذاب الذي حلَّ بهم : «فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا» .
- وحدّد وقت التحول ، وهو شروق الشمس بكلمة واحدة هي : مُشرقين .
- وعبّر عن حركة التحوّل بكلمتين فيهما طباق الإيجاب وهما : «عَالِيَهَا سَافِلَهَا» .
- وصوّر بإيجاز رصين كيف فاجأهم العذاب ، وباغتتهم الصيحة ، وهم مطمئنون ينعمون في بيوتهم ومزارعهم ونومهم اللّذيذ : «فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ» .
- وأبرز السياق - من خلال ألفاظ العذاب والصيحة والحجارة والتهديد بحق الظالمين - أبرز مبلغ غضب الله عليهم لِعظَم جرائمهم التي اجترحوها ، فكان القلبُ تطهيراً لوجه الأرض من أدناسهم وأرجاسهم .
- وشبَّهَ الحجارة النارية المعلَّمة التي قُذفوا بها بالمطر الغزير المتتابع المتساقط من السماء .

وكانت نتيجة التحوّل أن غدت ديارهم بعد القلب الشديد أخفض بقعة في العالم (٤٠٠م تحت سطح البحر) .

وتسمّى اليوم «البحر الميت» أو «بحيرة لوط» ، وهي بحيرة في الأردن شديدة

المملوحة ، منتنة الرائحة ، لا حياة فيها ، ولا أحياء حولها!

ثالثاً - التحوّل الأحيائيّ (البيولوجيّ) :

وهو تحوّل يتعلّق بالكائن الحي من حيث اللون والحواس والتكوين ، والصحة والمرض ، والإحياء والإماتة ، وله صور متعددة :

١- التحـولّ في الجسم الإنسانيّ: ومجاله الإنسان، وما يتألف من أجهزة وأعضاء:

أ - تحوّل لونيّ:

وقع هذا التحوّل ليد موسى عليه السلام لمّا أمره الله سبحانه أن يُدخل يده في جيبه ، فتحوَّلَ لونها إلى الأبيض الناصع من غير عيب ولا أذى ، فكانت إحدى الآيات التي أُرسل بها إلى فرعون وقومه :

- ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى﴾ . (طه٢٢)

- ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاء لِلنَّاظِرِينَ﴾ . (الأعراف١٠٨)

ونلمح في السياق حركة الجمال اللونيّ وسرعة تحوّله ومفاجأته لموسى ، وهو يرى يده بيضاء تتلألأ ، وتمثّلَ التحوّل في جواب الطلب المجزوم : «تَخْرُجْ بَيْضَاء» ، وفي جملة إذا الفجائيّة : «فَإِذَا هِيَ بَيْضَاء لِلنَّاظِرِينَ» .

وقد أكّد السياق أنَّ تحول اليد إلى اللون الأبيض لم يُلحقْ بها عيباً أو أذى ، وذلك في جملة : «مِنْ غَيْرِ سُوءٍ» ، بل اللون الأبيض جمال باهر للناظرين : «فَإِذَا هِيَ بَيْضَاء لِلنَّاظِرِينَ» .

وقوله تعالى «من غير سوء» هو احتراس لدفع التوهم ، والاحتراس ضرب من ضروب الإطناب ، «ويقال له التكميل ، وهو أن يُؤتى بعد كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفع ذلك الإبهام» .(٩)

ب- تحوّل بصريّ:

لمّا ابيضت عينا يعقوب عليه السلام من شدة حزنه وحسرته على فقد ابنه يوسف شاء الله بقدرته أن يردّه بصيراً بقميص ابنه يوسف ، فكانت مفاجأة سارّة له ولأهله وأبنائه :

﴿فَلَمَّا أَن جَاء الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ . (يوسف٩٦)

وفي الآية دلالة صريحة على سرعة التحوّل من خلال دخول الفاء على الفعل ، وتقرير الحال الجديدة التي آل إليها يعقوب عليه السلام : فارتدَّ بصيراً ، «فالفاء عاطفة ، وارتدَّ فعل ماض ، وفاعله ضمير مستتر (وهو يعقوب) وبصيراً : حال منصوب ، أو ارتدَّ فعل ماض ناقص يعمل عمل صار ، وبصيراً خبرها» .(١٠)

وفي الآية تصوير حركيّ عجيب تمثّل في حركة إلقاء القميص على وجه يعقوب ، وحركة تغيّر السائل الأبيض في عينيه إلى الوضع الطبيعيّ .

وفي الآية يطفح السياق بالبشر والمسرّة بعد حدوث المفاجأة الحلوة التي عبّر عنها يعقوب بتقرير ثقته بأنَّ الله تعالى سيشفي نفسه بإرجاع يوسف إليه ، ويشفي جسمه بردّ بصره :

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ .

ج- تحوّل جنينيّ:

وهو حمل مريم بعيسى دون أن يمسّها بشر ، أو يكون لها زوج بعد أن كانت خالية الرحم خالية الذّهن من الحمل :

- ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا * فَأَجَاءهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ . (مريم٢٢ - ٢٣)
- ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ . (الأنبياء٩١)

وقد انطوت الآيات على صور ومعان كثيرة متزاحمة :

- تقرير الآيات أنَّ هذا التحول أعجوبة باهرة للاعتبار ، فنفخة الروح الأمين جبريل في جيب درع مريم البتول قد دخلتْ إلى جوفها فحملت بالجنين كما تحمل النساء بأولادهنَّ تسعة أشهر ، وهو المشهور الظاهر .(١١)
- تقرير الآيات أنَّ هذه المرأة كانت من أطهر نساء العالمين ، بالإشارة إلى إحصان فرجها ، وهي كناية لطيفة عن العفّة والحشمة .
- تصوير ما اعتمل في نفس مريم من غمّ وخوف وحزن وتمنّ الموت :

«قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا» ، وتصوير إحساسها بالحمل ، وتنحّيها إلى مكان بعيد ، ومعاناتها من ألم الطَّلق الذي ألجاها إلى ساق نخلة حيث كان المخاض ، وحيث كانت البشرى والكرامات والنبوّة : «فَأَجَاءهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ» .

د- تحوّل نُطقيّ:

ولمّا ولدته جاءت تحمله بين يديها ، فاستنكر قومُها أمرها أشدّ الاستنكار ، فأشارت إليه دون أن تكلّمهم ، فتعجّبوا وتهكّموا :كيف يكلمّون طفلاً رضيعاً ؟! فكانت المفاجأة والآية الباهرة حين تحوّل هذا الطفل الرضيع إلى متكلّم بليغ :

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّه آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاة وَالزَّكَاة مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا * وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ . (٢٩-٣٣) مريم

والآيات الكريمة مُفعمة بعبير الجمال وطلاوة المقال :

- فالطفل الوليد (عيسى عليه السلام) الذي لم ينضج جهازه الصوتي بعد يتحوّل إلى خطيب مفوّه يبهر الحاضرين ، ويبزّ المتكلّمين ، وهو يشدو بصوت واضح قوي دون حبسة ولا تلعثم .

ومعلوم بالخبرة الإنسانية وبالبحث العلميّ أنَّ هذا مُحال في عالم الأطفال ،

فالوليد يستهلّ صارخاً بصيحة الميلاد ، وهي بداية التنفس ، وتنتج من اندفاع الهـواء بقوة عبر الحنجرة في طريقه إلى الرئتين ، فتهتزّ الحبال الصوتية لأوّل مرّة ، ثمَّ يُصدر أصواتاً عشوائية غامضة متكرّرة تشكّل المادة الخام للحروف والكلمات في مرحلة الرضاعة حيث تظهر الكلمة الأولى بعد الشهر التاسع تقريباً .(١٢)

- والنصّ المنطوق آية في البلاغة قد حوى الحكمة ، وفصل الخطاب بما سُكب فيه من شَهْد المعاني المتدفّقة ، ورحيق الألفاظ السَّلسة الموجزة .
- وإيحاء السياق يفسح للمتلقّي أن يستشعر مدى الطمأنينة والسعادة والراحة النفسية التي غشيت مريم ، وابنُها الوليد يتكلّم ،

ويعلن أنَّه عبدُ الله ،

وأنّه نبيّ مبارك مؤيد بالوحي والكتاب ،

وأنّ رسالته في الحياة أن يعبد الله ، فيقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ، ويبرّ بوالدته هذه التي تحمله بين يديها .

ويفسح السياق للمتلقّي أن يستشعر مدى الانبهار الذي استولى على السامعين الحاضرين فأفحمهم وألجمهم ، وارتفع بهذه الصدّيقة العفيفة في أعينهم إلى القمم الشوامخ ، والسّحب العَلية .

هـ- تحوّل صحيّ:

وذلك أنّ الله سبحانه وتعالى ابتلى أيوب عليه السلام في ماله وأولاده وجسمه ، فذهب المال ، وهلك الأولاد ، وأصاب جسمَه المرض ، فصبر سنين واحتسب ، ودعا ربَّه أن يُفرّج عنه ما به من ضُرّ وبلاء ، فاستجاب الله له ، ورزقه المال والأولاد والشّفاء التام :

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾ . (الأنبياء٨٣-٨٤)

وجاء في سورة ص : ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ * ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ * وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَى لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ . (ص ٤١ -٤٣)

ويُلحظُ في الآيات الكريمة أنَّها جاءت في معرض امتنان الله وثنائه على نبيّه أيوب عليه السّلام :

امتنان الله عليه بالشفاء وتحول المرض إلى العافية ، وامتنانه عليه بإعطائه المال والأولاد ، وثناء الله على إخلاصه وصبره واحتسابه حتى صار مضرب المثل في الصبر الجميل ، والتحمّل الشديد ، وغدا أنموذجاً رائعاً للعابدين السَّالكين ولذوي العقول المستبصرة .

ويُلحظُ صبر أيوب حتى في دعائه ، إذ اتصف تضرّعه إلى الله بالتلطّف في السؤال دون التصريح بالدعاء ، وهذا من أبلغ الأساليب ، واتصف بالرقة في عرض حاله ، ونعتَ ربّه بأرحم الراحمين ؛ ليستدر رحمته وعطفه .

كما اتصف تضرّعه بحسن التأدب مع ربّه ، فنسب ما أصابه من مرض وهزال وبلاء إلى الشيطان ، مع علمه أنَّ الخير والشرّ بيد الله وحده .

وما أسعدَ أيوب ، وهو يرى الماء ينبع تحت رجله ، فيغتسل منه ويشرب ، وينظر فإذا العافية تسري في جسمه ، وإذا الهزال قد زال ، وإذا الخيرات تصبّ عليه صبّاً : أموال ، وأولاد ، وزروع وثمار ، ورضوان من الله!

٢ - التحوّل الملمحيّ والشَّبهيّ:

وهذا النوع من التحوّل قائم على تغيّر الملامح ، وإلقاء الشّبه ، ومن صُوره :

أ- تغيّر ملامح يوسف عليه السّلام من ملامح الطفولة إلى ملامح الرجولة ، ولذلك لم يعرفه إخوته لمّا دخلوا عليه في مصر حتى عرّفهم إلى نفسه في نهاية القصّة القرآنية :

- ﴿وَجَاء إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ . (يوسف ٥٨)

- ﴿قَالُواْ أَءِنَّكَ لأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَيْنَا﴾ . (يوسف ٩٠)

والنصُّ يصرّح بأنّ يوسف قد عرف إخوته على الرغم من تقادم الزمن ، أمَّا هم فأنكروه لتغيّر ملامحه من غضارة الطفولة إلى متانة الشباب مع هيبة المُلك .

وبين المعرفة والإنكار طباق الإيجاب ، وقد ازداد به النصّ جمالاً وتلألؤاً ، كما ازداد بالحوار بين يوسف وإخوته إثارةً وحيوية .

ولّما ذكّرهم يوسف بما فعلوا به تعجّبوا وفوجئوا ، وتساءلوا ، والهمزة للاستفهام التقريريّ ، وهو «استفهام يدلّ على الاستعظام ، أي أنَّهم تعجّبوا من ذلك أنَّهم يتردّدون إليه من سنتين وأكثر ، وهم لا يعرفونه ، وهو مع هذا يعرفهم ويكتم نفسه» .(١٣)

ب- إلقاء الله تعالى شبه عيسى عليه السلام على أحد أعدائه ، لّما همّ اليهود بقتله ، فأخذوا الرّجل وقتلوه وصلبوه ، وظنّوا أنّهم قتلوا عيسى! وقد رفعه الله إليه فسلمَ من كيدهم وشرورهم :

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ . (النساء ١٥٧)

والآية الكريمة تؤكدّ - بتكرار النفي القاطع أربع مرات - أنَّ عيسى لم يُقتل ولم يُصلب ، وتبيّنُ غباء المدّعين وجهلهم ؛ إذ لم يفرّقوا بين نبيّهم عيسى وهذا المقتول المصلوب الذي ألقى الله عليه شبه عيسى ، والتكرار يرسّخ المعنى في النفس ، ويزيده قوّة ووضوحاً .

وبإلقاء الشبه فشلت محاولة اغتيال هذا النبيّ الكريم عبدِ الله ورسوله الذي رفعه الله إليه ، لينزل في آخر الزّمان - كما أخبر الرسول ﷺ - «حَكَماً مقسطاً ، فيكسر الصّليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويفيض المال ، حتى لا يقبله أحد» .(١٤)

٣- التحوّل الإحيائيّ:

وهو أعجب التحوّلات ؛ لأنه انتقال تام من الحياة إلى الموت ثمَّ إلى الحياة مرّة أخرى بقدرة الله الحيّ القيوم ، وقد حدث لأصناف من الكائنات قصّها علينا القرآن الكريم :

أ- إحياء الألوف من بني إسرائيل بعد موتهم:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ﴾ . (البقرة٢٤٣)

وقد ابتدأ بناءُ هذه القصة الموجزة المعبّرة بالاستفهام التعجبيّ التشويقيّ ، فهؤلاء القوم نزحوا من مناطقهم هروباً من الوباء ، وكان دافعهم الخوف من الموت ، لا الوقاية الصحية ، فأماتهم الله جميعاً ، أمات ألوفاً مؤلّفة بكلمة واحدة : «مُوتوا» فماتوا صغاراً وكباراً ، وانتشرت جثثُهم ، وخيّم عليهم الصمت المطبق ، ثمَّ أحياهم الله ، فتحوّلت الجثث الهامدة إلى أجسام حيّة ؛ ليعلموا أنَّ الموت أجل مقدّر ، وليكونوا عبرة لكلّ معتبر .

ب- إحياء المارّ على القرية بعد أن أماته الله مائة عام، وإحياء حماره أمام ناظريه:

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىَ يُحْيِي هَذِهِ اللّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ . (البقرة٢٥٩)

وهذه القصة العجيبة تنطوي على فيض من المعاني الزاخرة ، والصور الفنية الباهرة :

- صوّرت مشهد القرية ، وما حلَّ بها من خراب ودمار وهمود بعبارة بليغة تحمل بين ثناياها صوراً كثيرة متداخلة لأحياء القرية وطرقاتها وبساتينها وأسوارها وذكريات ساكنيها :

﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ .

- صوّرت ما اعتمل في نفس الرجل الصالح «عُزير» من تعجّب من قدرة الله على إحياء هذه القرية الميتة المدمرة ، وهو يتأمّل سقوفها المحطّمة ، وجدرانها الخربة :

﴿قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ .

وفي التركيب مجاز مرسل وعلاقته المحلية ، أي : أهل هذه القرية .

- بيّنت بالحوار القصير الرصين التحوّلَ الذي جرى لهذا المارّ المتعجّب ، فقد أماته الله مائة سنة كاملة ثمَّ أحياه ، وساءله عن مدّة لبثه ، ولفت نظره إلى مشهدين عجيبين :

مشهد طعامه وشرابه الذي ظلَّ طازجاً ، ولم يتغيّر ولم يفسد على الرغم من مرور مائة سنة عليه ، ومشهد حماره الذي بليتْ عظامه .

- صوّرت مشهد إحياء الحمار بين ناظري الرجل الصالح ، والتقطتْ تفاصيلَ حركيَّة للعظام ، وهي تتجمّع وتتركّب فوق بعضها ، وتُكسى باللحم . وفي تركيب : ﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ : استعارة لطيفة ، فقد شُبّهت العظام بالشيء الذي يُكسى بالثياب .

ثمَّ ينهض الحمار ، ويعلن الرجل الصالح بعد هذه المشاهد الحسية الفريدة :

﴿أَنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

ج- إحياء الطيور الأربعة لسيدنا إبراهيم عليه السلام:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ

جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ . (البقرة٢٦٠)

والآية تبتدئ بتقرير القصة بإذ الظرفية الدَّالة على تحقّق وقوع الحدث ، وترتكز على الحوار بين ربّ العزّة جلّ جلاله وخليله إبراهيم عليه السلام ، وتصوّر مشهداً حيّاً لإحياء الموتى ، وتتيح للمتلقي أن يتابع ببصره نبي الله إبراهيم ، وهو يأخذ أربعة طيور ويذبحهنَّ ويقطّعهنّ ، ويخلط بعضهنّ ببعض ، ثمَّ يصعد إلى أعالي الجبال ، ويفرّق عليها الأجزاء ، ثمَّ يناديهنّ بصوته ، فتلتئم الأجزاء : الريش مع الريش ، والدم مع الدم ، واللحم مع اللحم ، ثمّ تدبّ فيها الحياة بإذن الله ، فإذا هي تسعى وتغرّد أمام ناظريه كأنَّه لم يذبحها من قبل!

د- إحياء السبعين الذين اختارهم موسى عليه السلام بعد أن ماتوا حَرْقاً:

﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ﴾ . (الأعراف١٥٥)

في الآية الكريمة مشهد حركيّ تصويريّ ، يتمثّل في اختيار موسى لجماعة من قومه ، وما يستتبع الاختيار من كلام ونداء وحركات وإشارات ، ويتمثّل في انطلاق هؤلاء السبعين المختارين يقودهم موسى عليه السلام ؛ ليعتذروا عن عبادة العجل ، كما يتمثّل في ارتجاف الجبل بهم ، ونزول الصاعقة عليهم ، فإذا هم جثث محروقة ، وإذا موسى عليه السلام يدعو ربّه مستسلماً مسترحماً ، فيستجيب الله له ، ويبعثهم من بعد إهلاكهم .

هـ- بعث أهل الكهف بعد أن أرقدهم ثلثمائة وتسع سنين:

قال تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلاَ يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ . (الكهف١٩)

- ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ . (الكهف٢٥)

تصوّر الآية الكريمة حلقة من حلقات قصة أصحاب الكهف ، وتومئ إلى قدرة الله على إيقاظهم من النوم الطويل العميق ، وتحوّلهم من السّبات والرقاد إلى اليقظة والحياة ، وقد عبّرت الآية عن هذا التحوّل بكلمة : «بعثناهم» كأنّما هم موتى ؛ لأنَّ النوم أخو الموت ، وهو أطول نوم في التاريخ ، واتسم هذا المشهد بالحوار الرقيق الذي تضمّن تساؤلهم عن مدّة لبثهم في الكهف ، وإرسال أحدهم إلى المدينة ، والتلطّف في دخولها وشراء الطعام منها .

وفي سياق هذه القصة ورد العدد الصريح لمدة نومهم ، وهو (٣٠٩) سنين ، ومعلوم أنَّ «الأرقام تُجفّف روائية السياق والنّص ، أمّا ورودها في القرآن فيكتسي جمالاً في النسق ، علاوة على حسن جمال في الإيقاع ، حتى لا تملّ له الأذن سماعاً وترديداً ، وحسبك من ذلك قوله تعالى : ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ .

وليجرّبْ مَنْ شاء وضع الرقم (٣٠٩) في أي نسق أو سياق ، ثمَّ فلينظر كم درجة التئامه وجماله بالقياس إلى هذا الذي يُعجب ويُطرب» .(١٥)

رابعاً- التحوّل الثنائيّ:

وهو تحوّل بيولوجيّ من نوع إلى نوع آخر ، ومن جنس إلى جنس يخالفه صفةً وكياناً ، وتمثّل ذلك في التحوّلات الآتية :

١- من النُّورانيّة إلى البشريّة : وهو تحوّل الملائكة إلى الصورة البشرية في موضعين اثنين :

أ- في ضيافة إبراهيم ولوط عليهما السلام حيث أنكرا شأنهم ووجلا منهم، وفوجئا بهم:

- ﴿وَلَقَدْ جَاءتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُواْ سَلاَمًا قَالَ سَلاَمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاء بِعِجْلٍ حَنِيذٍ * فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لاَ تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾ . (هود٦٩-٧٠)

- ﴿فَلَمَّا جَاء آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُون (قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُون ۞ قَالُواْ بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ . (الحجر٦١-٦٣)
- ﴿قَالُواْ يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُواْ إِلَيْكَ﴾ . (هود٨١)

تنصّ الآيات الكريمة على أنَّ هؤلاء الملائكة الذين تحوّلوا إلى الصورة البشرية قد أحدثت أشكالُهم مفاجأة مثيرة لهذين النّبيين تجلّت في إنكارهم والخوف منهم ، حتى إذا كشف الملائكة عن هُوّياتهم حلّت الطمأنينة ، وذهب الرّوع والفزع!

وتزخر الآيات بالحوار الدافئ الهادي الذي ابتدأ بإلقاء التحية وردّها بأحسن منها ، ثمَّ شابَهُ الحذر والارتياب ، ثمَّ ما لبث أن اتسم بالقوة والصرامة حين بيّن الملائكة مهمتهم التي جاءوا من أجلها ، وهي إهلاك قوم لوط .

وتصوّر الآيات مشهداً فريداً لهؤلاء الملائكة الذين تمثّلوا على صورة شباب حسان الوجوه ، وهم جالسون في بيت إبراهيم الخليل ، وقد قدّم لهم عجلاً مشوياً يُسيل قُتارُه اللعاب ، فما البال بلحمه الشّهي الطّري؟! فلمَّا أبطأ الضيوف نظر إليهم ، فإذا أيديهم لا تصل إلى الطعام ، فداخله الإنكار والفزع ، فأخبروه بحقيقتهم النورانية ، وأنهم لا يأكلون الطعام ، ولا تثيرُ فيهم رائحة العجل المشوي شيئاً!

ب - تمثّل جبريل عليه السلام لمريم:

قال تعالى : ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۞ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَن مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ۞ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ . (مريم ١٨-١٩)

تُظهر دلالة قوله تعالى : ﴿بَشَرًا سَوِيًّا﴾ أنَّ جبريل عليه السلام قد تصوّر لمريم في أكمل خلقة بشرية ، وأقوم هيئة ، وأحسن لباس ، وإذا به أمام العابدة مريم التي فوجئت برؤيته فاستعاذت بالله ، وقد اضطربتْ وتملّكها الخوف الشديد ، حتى طمأنها أنّه ملَك كريم .

وتزدان الآيات بالسّجع المرصّع الذي يُكسب التراكيب إيقاعاً ساحراً يشنّف الآذان ، ويقريها بأحلى بيان : سويّاً ، تقيّاً ، زكيّاً .

٢- من البشريّة إلى الحيوانيّة:

وهو تحوّل اليهود المعتدين على أوامر الله إلى قردة وخنازير ؛ ليكونوا عبرة وذكرى :

- ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَواْ مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ . (البقرة٦٥)
- ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللّهِ مَن لَّعَنَهُ اللّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضَلُّ عَن سَوَاء السَّبِيلِ﴾ .(المائدة٦٠)

والنصّ القرآنيّ يصرّح بأنّهم استحقوا هذا المسخ بسبب جرائمهم وعدوانهم ، وفيه تهكّم مؤلم وسخرية لاذعة منهم ، إذ استعمل المثوبة مكان كلمة العقوبة .

كما يصرّح بأنهم تحوّلوا إلى صنفين من الحيوانات : القردة والخنازير ، وهما صنفان قبيحا الشكل والهيئة غريبا الأطوار والخصائص ، وأنّهم مُسخوا فعلاً ، وصاروا قردة تتعاوى ، لها أذناب تثب على بعضها ، بعدما كانوا رجالاً ونساء ، ولم يكن مسخهم معنوياً بالذلة والمهانة كما ذهب «مجاهد» ، بل كان مسخاً معنوياً وصُورياً والله تعالى أعلم .[١٦]

وإنّها لمفاجأة مُرعبة لهم حين فقدوا بشريّتهم ، وأحسّوا بسلوكهم الحيوانيّ سلوك القردة العابثة ، والخنازير الضّالة!

٣- من الجماديّة إلى الحيوانيّة:

وهو تحوّل عنصرين من الجماد إلى الكائن الحي الحيوانيّ وهما :

أ- الصخرة الصّماء التي خرجت منها ناقة صالح :

- ﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ . (هود ٦٤)

- ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا﴾ . (الإسراء ٥٩)

وقد خرجت هذه الناقة من الصخرة بقدرة الله تعالى ؛ لتكون آيةً لثمود قوم صالح ، ولكنّهم عقروها ، وكذّبوا صالحاً ، فأهلكهم الله بالصيحة العظيمة بعد ثلاثة أيام من ذبحها .

ويبرز السياق القرآنيّ سمات خطاب صالح عليه السلام كاستعمال أسلوب النداء الذي يشي بلحمة انتسابه إلى قومه ، ورفقه بهم ، وحرصه على تبليغ الرسالة ، وتعظيم ربّه ، وتشريف الناقة بإضافتها إلى الله ، واستعمال أسلوب الأمر والنهي في بيان طرائق التعامل مع هذه المعجزة :

فقد أمرهم بتركها تأكل كما تشاء ، ونهاهم عن إلحاق الأذى بها ؛ لأنّ لذلك عواقب وخيمة .

ويبرز السياق قيمة هذه المعجزة في الهداية والاستبصار ، إذ أتتهم واضحة لكلّ ذي عينين ، ولكلّ ذي عقل ، ففي قوله : «مبصرة» : مجاز مرسل علاقته السببية .

ب - عصا موسى عليه السلام التي تحوّلت إلى حيّة تسعى:

﴿قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى * فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى * قَالَ خُذْهَا وَلاَ تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَى﴾ . (طه ١٩-٢١)

- ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ . (الأعراف ١٠٦- ١٠٧)

هذه الآيات الكريمة تفيض بالمشاهد التصويرية المثيرة ، فالله جلّ جلاله يأمر موسى عليه السلام بأن يُلقي عصاه ، فيلقيها من يده ، وسرعان ما تتحوّل هذه العصا الخشبيّة المادية إلى حيّة حقيقية تتحرك وتضطرب وتتلوى ، فيُفاجأ

موسى ، ويولي هارباً خائفاً ، ويأمره الله تعالى أن يمسك بها ، فلا تلبث أن تعود إلى حالتها الأولى .

وهذا شكل مثير من أشكال التحوّل حيث يتكرر - بإذن الله- كلما أراد موسى ذلك .

ثمّ ينتقل المشهد التصويري إلى بلاط فرعون الذي يطلب من موسى دليلاً على نبوّته ، فيلقي موسى عصاه ؛ فتتحوّل في لمح البصر إلى ثعبان حقيقيّ ضخم طويل ، ويا لهول المفاجأة والصدمة العنيفة على قلب فرعون ، والثعبانُ الهائج يسرع نحوه فاغراً فاه ، وقد ذُعر وجعل يتخبّط ، ويثب كالمجنون!

وقد عبّرت الآيات «بإذا» الفجائية عن التحوّل السريع للعصا ، وعمّا أحدثته من مفاجأة لموسى أول مرة ، ومن صدمة كبرى لفرعون اللعين .

وفي الآيات سجع رائق أندى من قطرات الطلّ ، قد تضوّعَ شذاه في الفواصل القرآنية ، وكسا جنبات النصّ حُلّة بهية قشيبة .

أهمّ نتائج المدارسة:

يمكن إجمال النتائج التي توصّلت إليها هذه المدارسة في النقاط التالية :

١- بيّنت تفرّد الصورة الجماليّة وتألّقها في أشكال التحوّل والمفاجأة في القرآن بما حوتْ من جوامع الكلم التي تزخر بالمعاني الغزيرة ، وما اضطمّت على فنون بلاغيّة تنضوي تحت أسرار التراكيب .

٢- أثبتَت تنوّع الصور الجمالية وتعدّد أفنانها وفنونها ، وارتباطها بتنوّع أشكال التحوّل الدّالة على قدرة الله وحده في تغيير طبائع الأشياء .

٣- أثبتَت أنّ أشكال التحوّل والمفاجأة شملت مظاهر الحياة جميعها من تحوّل غذائيّ ، وتحوّل بيئيّ ، وتحوّل بيولوجيّ ، وتحوّل ثنائيّ .

٤- أظهرت أنَّ أشكال التحوّل اتسمت بأنها كانت خارقة للعادة ، وأنّها أحدثت مفاجآت مذهلة لأصحابها ولمن شاهدها أو عاصرها ، وأنّها كانت تأييداً من الله تعالى لرسله ، أو كرامات لأوليائه ، أو نعماً لعباده ، أو عقاباً للعصاة المجرمين .

٥- بيّنت أنَّ الأشكال المتحوّلة قد بقيت على الطبيعة التي تحوّلت إليها ، وأنّها لم تتغيّر باستثناء تحوّل الملائكة إلى الصورة البشرية ، وتلوّن يد موسى باللون الأبيض ، وتحوّل عصاه إلى حيّة تسعى ، فقد عادت إلى سيرتها الأولى وطبيعتها الأصلية .

٦- بيّنت أنّ مجموعة من أشكال التحوّل لا تزال ماثلة أمام نواظر الناس يرونها ويحسّونها وينعمون بها ، ومن ذلك تحوّل رحيق الثمار إلى عسل شهي ، وتحوّل وجه الأرض من لون إلى آخر ، وأنّ هذه الأشكال صوّرتها آيات القرآن أبدع تصوير ؛ لتظلّ مصدراً دائباً متجدّداً للعبرة والعظة .

وبعد ، فتلك كانت جولة في الرياض الأنائق للصورة الجمالية في أشكال التحوّل والمفاجأة في القرآن الكريم تلك الجولة التي تنبئ عن عجائب قدرة الله جلّ جلاله في التحويل والتغيير في طبائع الأشياء وحالاتها وصفاتها ، والتي تحملُ المؤمن على الإخبات والتسبيح ، فيُعلن صباح مساء : ﴿أَعْلَمُ أَنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

الهوامش:

(١) انظر : مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، ابن هشام الأنصاريّ ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار إحياء التراث العربيّ ، بيروت ، ص ٨٠ ، ٨٤ .

(٢) إعراب القرآن الكريم وبيانه ، محيي الدين الدرويش ، ط ٦ ، دار ابن كثير ودار اليمامة ، دمشق- بيروت ، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م ، ج ١ ، ص ١١١ .

(٣) أساس البلاغة ، الزمخشريّ ، دار الفكر ، بيروت ، مادة (بجسَ) ، ص ٢٩ .

(٤) انظر للاستزادة : في سبيل موسوعة علميّة ، د . أحمد زكي ، ط ٥ ، دار الشروق ، بيروت- القاهرة ، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م ، ص ١٦٣-١٦٦ .

(٥) انظر فوائد العسل الطبيّة في كتاب : الاستشفاء بالقرآن الكريم ، د . أحمد الصباحيّ عوض الله ، ١٩٨٦ ، ص ١١٦-١٢٧ .

(٦) أسرار البلاغة ، عبد القاهر الجرجانيّ ، تحقيق السيد محمد رشيد رضا ، دار الفكر ، ص ٩٣ .

(٧) انظر قصة الرجلين في سورة الكهف الآيات (٣٢-٤٤) .

(٨) انظر قصة أصحاب الجنة في سورة القلم الآيات (١٧ - ٣٣) .

(٩) جواهر البلاغة ، السيد أحمد الهاشميّ ، ط ٦ ، دار الكتب العلمية ، ص ١٨٦ .

(١٠) إعراب القرآن وبيانه ، محيي الدين الدرويش ، ج ٤ ، ص ٤١ .

(١١) انظر : مختصر ابن كثير ، تحقيق محمد علي الصّابوني ، دار الفكر - بيروت ، ج ٢ ، ص ٤٤٧ ، ٤٤٨ .

(١٢) انظر : علم نفس النمو ، حامد زهران ، ط ٤ ، عالم الكتب- القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ١١٣/ ١١٤ ، ١٤٢

(١٣) مختصر ابن كثير ، تحقيق الصابوني ، ج ٢ ، ص ٢٦٠ .

(١٤) رواه البخاري ، في كتاب البيوع ، حديث رقم ٦٢ ، ص ٢٤٦ (مختصر صحيح البخاريّ ، شرح لجنة من العلماء ، ط١ ، دار ومكتبة الهلال - بيروت ، ١٩٨٧م) .

(١٥) من أساليب البيان في القرآن ، محمد علي أبو حمدة ، ط١ ، جمعية عمال المطابع التعاونية ، عمّان ، ١٩٧٧م ، ص ٣٤/ ٣٥ .

(١٦) انظر : مختصر ابن كثير ، تحقيق الصابوني ، ج ١ ، ص ٧٤ .

المصادر والمراجع:

١- القرآن الكريم .
٢- أساس البلاغة ، الزمخشريّ ، دار الفكر ، بيروت ، (د .ت) .
٣- الاستشفاء بالقرآن الكريم ، د . أحمد الصباحيّ عوض الله ، ١٩٨٦ .
٤- أسرار البلاغة ، عبد القاهر الجرجانيّ ، تحقيق السيد محمد رشيد رضا ، دار الفكر ، (د .ت) .
٥- إعراب القرآن الكريم وبيانه ، محيي الدين الدرويش ، ط ٦ ، دار ابن كثير ودار اليمامة ، دمشق- بيروت ، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م .
٦- جواهر البلاغة ، السيد أحمد الهاشميّ ، ط ٦ ، دار الكتب العلمية ، (د .ت) .
٧- علم نفس النمو ، حامد زهران ، ط ٤ ، عالم الكتب- القاهرة ، ١٩٧٧ .
٨- في سبيل موسوعة علميّة ، د . أحمد زكي ، ط ٥ ، دار الشروق ، بيروت- القاهرة ، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م .
٩- مختصر تفسير ابن كثير ، تحقيق محمد علي الصّابوني ، دار الفكر - بيروت ، (د .ت) .
١٠- مختصر صحيح البخاريّ ، شرح لجنة من العلماء ، ط١ ، دار ومكتبة الهلال - بيروت ، ١٩٨٧م .
١١- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، ابن هشام الأنصاريّ ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار إحياء التراث العربيّ - بيروت ، (د .ت) .
١٢- من أساليب البيان في القرآن ، محمد علي أبو حمدة ، ط١ ، جمعية عمال المطابع التعاونية- عمّان ، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٧م .

دلالة الألوان في آيات القرآن

- اختلاف الألوان
- اللون الأبيض
- اللون الأسود
- اللون الأحمر
- اللون الأخضر
- اللون الأصفر
- اللون الأزرق

دلالة الألوان في آيات القرآن

شُغِلَ كثيرٌ من الناس في زماننا الحاضر عن التفكر والتأمل في الملكوت الرَّحب المحيط بهم إحاطةَ السوار بالمعصم ، وقصروا أنظارهم على أمتار أرضية معدودة ، ومساحات محدودة ، فتعلقتْ أبصارهم بُكرةٍ بين أقدام اللاعبين ، أو خبزة بين جدران الطابخين ، أو عجلة سيارة ، أو شاشة تلفاز ، أو سرير شهوة .

ولو تأمل أحدهم في الخلق والحياة والطبيعة لوجد أمام ناظريه لوحةً جماليةً كبرى أبدعها الخالق سبحانه أحسنَ إبداع ، وأروعَ إتقان ، وأعظم صُنع :

﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ . (المؤمنون ١٤)

براها الخالق بديعة متناسقة تهزّ الوجدان ، وتوقظُ الإحساس ، وتغذّي الروح ، وتبعث في النفس المتعة والمسرّة :

﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ . (النمل ٨٨)

وتمتاز كلُّ جزئية في هذه اللوحة الكونية بقدرٍ باهر من الزينة التي تتخلّلُ ذراتها ، وتعطّر أعطافها ، ليهنأ الإنسان بجواذب الجمال في حياة وادعة جعلها الله تعالى للابتلاء والاختبار :

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ . (الكهف ٧)

وفي هذه اللوحة الساحرة اختلفت الألوان بتناسق تكويني عجيب ، فانتظمت بذلك الحياة والأحياء في روعة بالغة لا يدركها إلا من أوتي إحساساً مرهفاً ، ونفساً ذواقة ، وعقلاً متدبراً :

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي

ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ . (الروم ٢٢)

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ . (النحل ١٣)

وقد أشار القرآن الكريم إلى أنواع مختلفة الألوان ماثلة للعيان هي :

١- الثمرات : وهي ثمار النبات من خَضْروات وفواكه مختلفة الطعوم والأجناس والأشكال والألوان ، فمنها الأحمر ، والأخضر ، والأصفر ، والأزرق وغيرها .

٢- الجبال : وهي ذات طرائق مختلفة : بيض ، حُمر ، وسُود .

٣- الناس : وفيهم الأبيض والأسود والأحمر ، وفيهم غير ذلك .

٤- الدواب : وتشمل الحيوان ، وما أكثر ألوانه وأجناسه!

٥- الأنعام : وهي الإبل والبقر والغنم التي ينتفع منها الناس ، ويأكلون لحومها ، ويرون اختلاف ألوانها وألبانها .

قال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۞ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ . (فاطر٢٧- ٢٨)

٦- الزرع : وهو مختلف الطعوم والروائح والألوان من قمح وشعير وعدس . . قال تعالى :

٧- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ .(الزمر٢١)

٨- العسل : وهو خلاصة رحيق الأزهار والثمار وطعومها المختلفة ، يخرج من النحل متنوع الألوان كالأبيض والأحمر والأصفر .

قال تعالى : ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن

بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ . (النحل ٦٩)

يفهم مما سبق من الآيات الكريمة ما يلي :

- أنّ اختلاف الألوان ينتظم المخلوقات والكائنات كلَّها .
- أنَّ الماء هو العامل الأساس في تكوين الأشياء وتلوينها .
- أنَّ ألوان البيئة تنعكس على ألوان القاطنين فيها من أناس ودواب .
- أنَّ اختلاف الألوان آية ربانية عظمى لا يقدّرها حقَّ قدرها إلا العلماء المؤمنون ، أو مَنْ يعي بعقله ، ويعتبر بفؤاده .
- أنَّ الآيات الكريمة تدعو العلماء إلى دراسة هذه الظاهرة دراسةً مُتدبرة في الجوانب الجمالية ، والعلمية ، والصّحية ، والسّكانية .

ولقد قدم القرآن الكريم صوراً بديعة من الجمال في جانبيه الحسيّ والمعنويّ تدعو إلى التفكّر في شواهد قدرة الله ، ودلائل ربوبيته ، فهي آيات ناطقة بتوحيده ، ودعامات للدين الحق والشريعة السمحة .[١]

وإنها لمتعة لا تعدلها متعة حين يتأمل المرءُ ما في الكون من دقة معجزة ، وتناسقٍ عجيب في توزيع الألوان والظلال والأضواء والكائنات على رقعة البسيطة بصورة تلفتُ الحسّ ، وتستريح لها العين ، وتهدأ لها النفس والأعصاب ، ومن توازنٍ دقيق في حركة الأرض وثباتها وتقدير الأشياء فيها تقديراً موزوناً ، ومن ترابطٍ بين الكائنات في الأصل والمصير والحياة ، ومن حركة حية تبدو في كل شيء على سطح الأرض وفي الكون :[٢]

﴿وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ . (الرعد ١٥)

والاستمتاع بجمال الألوان والظلال الوارفة مرتبط بالهدف الأسمى للحياة ، وهو العبودية لله الواحد وفق ما أباح وشرع من تأمل ، واستمتاع بالأنعام ، وتزيّن

باللباس ، وتمتّع بطيبات الرزق ، ونظر في عجائب النبات والحيوان :

﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ * قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ . (الأعراف٣١-٣٢)

ولقد كان الرسول صلى الله عيه وسلم يعتني بالجمال عنايةً خاصةً في بدنه وملابسه وحذائه وبيته ومسجده ، ويدعو أصحابه إلى ذلك :

عن ابن مسعود رضي اللله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرةً من كِبْر . قال رجلٌ : إنَّ الرجل يحبُ أن يكون ثوبُه حسناً ، ونعله حسناً . قال : إنَّ الله جميل يحب الجمال . الكبر بَطَرُ الحق ، وغمطُ الناس» .(٣)

وكان عليه الصلاة والسلام يتزين بالملابس ذات الألوان المختلفة ومنها :

الأبيض : يستحب اللون الأبيض للّباس وتكفين الموتى وبخاصة في الجمع والمناسبات : «ألبسوا من ثيابكم البياض ؛ فإنها من خير ثيابكم ، وكفنوا فيها موتاكم .» (٤)

الأحمر : عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : «كان رسول الله ﷺ مربوعاً ، ولقد رأيته في حلّة حمراء ما رأيتُ شيئاً قط أحسن منه» .(٥)

الأخضر : عن أبي رِمْثَةَ رفاعة التميمي رضي الله عنه قال : «رأيت رسول الله ﷺ وعليه ثوبان أخضران» .(٦)

الأسود : عند جابر رضي الله عنه : «أنَّ رسول الله ﷺ : دخل يوم فتح مكة وعليه عمامة سوداء» .(٧)

وقد اصطبغت الكائنات بالألوان الزاهية منذ بدء الخلقية ، فرأى الناس الأزهار النضرة ، والثمار اليانعة ، والشمس الساطعة ، والقمر المنير ، والنجوم اللامعة ، والطبيعة الملونة الرائعة ، وقد استهوتهم ألوانها ، فانعكست على حياتهم في الزخرفة والرسم والتطريز والعمارة والبستنة .

ولا بد قبل تناول الألوان الصريحة في القرآن من نبذة يسيرة عن طبيعة اللون وأنواعه المختلفة .

يرتبط فهم اللون ارتباطاً وثيقاً بفهم الضوء ، وضوء الشمس خاصة ، وهو اللون الأبيض الذي ينحل إلى ألوان «قوس قُزح» كما أثبت «نيوتن» ذلك ، وهي : الأحمر ، والبرتقالي ، والأصفر ، والأخضر ، والأزرق ، والنيلي ، والبنفسجي .

والألوان الأولية للأصباغ هي ثلاثة : الأحمر ، والأصفر ، والأزرق .

والألوان الثانوية هي التي تنتج عن خلط لونيين أوليين .

وأصل الألوان التي نراها هو ضوء الشمس ، والضوء من أي نوع طاقة يمتصها الجسم بتركيبه الكيماوي ، ويحولها إلى طاقة من نوع آخر هي الحرارة .

وطيفُ الشمس لا يقتصر على سبعة ألوان ، بل فيه آلاف الألوان التي لا تُدرك العين الفروق بينها ، ولكنها تُدرك بالأجهزة الدقيقة ، ويمكن للإنسان العادي أن يتبين فروقاً بين ألوان الطيف تبلغ (٤٠) لوناً .[٨]

لقد احتفى القرآن الكريم بالألوان احتفاءً فنياً متميزاً ، وخصَّ الألوان الصريحة في أكثر من عشرين موضعاً بدقة التميز وعناية الإبراز ؛ ذلك لأنها جزءٌ هام متّصلٌ بأنشطة الحياة المختلفة ، ولما لها من أثر بالغ في النفس البشرية ، ولأن في تنوعها وتباينها أعظمَ العبر والعظات لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

وما أمتع أن نتناول الألوان التي صرَّح القرآن بذكرها ، ونتناول مجالات كلّ لون منها في سياق الآيات الكريمة فيما يتصل بالحياة الدنيا أو الدار الآخرة .

أولاً- اللون الأبيض:

وهو أساس الألوان ، يدلّ على الوضوح والنقاء والجمال ، وأمّا مجالاته في آيات القرآن فهي :

١- معرفة بدء الصيام:

لقد أباح الله تعالى الأكل والشرب والجماع في أي ليل شاء الصائم إلى أن يتبين ضياء الصباح من سواد الليل ، وعبّر عن ذلك بالخيط الأبيض من الخيط الأسود .

وكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدُهم في رجليه الخيط الأبيض والخيط الأسود ، فلا يزال يأكل حتى يتبين له رؤيتهما ، فأنزل الله بعد «من الفجر» فعلموا أنَّما يعني الليل والنهار . (٩)

قال الشَّريف الرَّضي : وهذه استعارة عجيبة ، والمراد بها بياض الصبح وسواد الليل ، والخيطان ههنا مجاز ،(١٠) وإنَّما شبههما بذلك ؛ لأنَّ بياض الصبح يكون في أول طلوعه مشرقاً خافياً ، ويكون سواد الليل منقضياً مولياً ، فهما جميعاً ضعيفان إلا أن هذا يزداد انتشاراً ، وهذا يزداد استسراراً . (١١)

قال تعالى : ﴿وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى الَّليْلِ﴾ . (البقرة ١٨٧)

٢- عينا سيدنا يعقوب عليه السلام:

ورد في سورة يوسف أنَّ سيدنا يعقوب عليه السلام فقدَ بصره من شدة حزنه وحسرته على يوسف وأخيه ، ولذلك ابيضت عيناه . ولعل بياض عينية تَأَتّى من تكوّن «السَّائل الأبيض» فيهما ، وهو أخطر من «السائل الأزرق» ،(١٢) ولكنَّ الله برحمته وقدرته أعاده بصيراً .

قال تعالى : ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ . (يوسف ٨٤)

واللون الأبيض في العين مزعج للنفس ، منفِّر للسرور ؛ لأنه نذير العمى التام ، وشاهد ذلك من الحديث الشريف : «روي أن امرأة يُقال لها أمّ أيمن جاءت إلى النبي ﷺ فقالت : إنَّ زوجي يدعوك .

قال : ومن هو؟ أهو الذي بعينه بياض؟!

قالت : والله ما بعينه بياض .
قال : إنَّ بعينه بياضاً!
فقالت : لا والله .
فقال عليه السلام : ما مِن أحد إلا وبعينه بياض»؟!

٣- يد سيدنا موسى عليه السلام:

أمر الله سبحانه موسى عليه السلام أن يُدخل يده في جيبه ، فخرجت بيضاء لامعة كالمصباح المنير من غير أذى أو عيب ، فكانت إحدى الآيات التي أُرسل بها إلى فرعون وملائه .

واللون الأبيض في يد موسى قوة هائلة ، وآية باهرة بما فيه من الوضاءة والتلألؤ :

قال تعالى : ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى﴾ . (طه ٢٢)

- ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ . (النمل ١٢)
- ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ . (القصص ٣٢)
- ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاء لِلنَّاظِرِينَ﴾ . (الأعراف ١٠٨)
- ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاء لِلنَّاظِرِينَ﴾ . (الشعراء ٣٣)

٤- جبال الأرض:

وصفت الجبال بأنها مختلفة الألوان ، وتصدَّر اللون الأبيض تلك الألوان ، ونجد كثيراً من الجبال البيضاء في صخورها وتربتها وخطوطها وطرائقها تُشع الضياء من قممها ، وتثبت الأرض بجذورها المتينة :

﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ . (فاطر ٢٧)

٥- وجوه المؤمنين يوم القيامة:

في هذا اليوم العصيب تتلوّن وجوه الخلائق بلونين : الأبيض والأسود . فمن تلوّن وجهه باللون الأبيض فرِح ونجا وفاز ، وكان من ورثة جنة النعيم .

واللون الأبيض في وجوه المؤمنين علامة الإشراق والصفاء ، والسرور والانبساط ، والبعد عن الضيق ، والحزن والخوف ، فهي وجوه مُسفرة راضية ناضرة :

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ۞ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ . (آل عمران ١٠٦-١٠٧)

٦- كأس أهل الجنة:

ووجوه أهل الجنة البيضاء المشرقة تتنعّم في نعيم مقيم من التفكه والتلذّذ ، ومن ذلك كأس خمر شديدة البياض يطوف عليهم بها الغلمان المخلدون ، ليس فيها أضرار ولا أكدار ، بل لذة وإمتاع . وبياض هذه الخمرة يُلذّذ أهل الجنة نظراً وشرباً ، فهو مثير للشهوة ، حبيبُ إلى النفس ، شهيّ الطعم ، عَبِقُ الرائحة :

﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِن مَّعِينٍ ۞ بَيْضَاء لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ۞ لاَ فِيهَا غَوْلٌ وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ . (الصافات٤٥-٤٧)

وبين أيديهم الحور العين ذوات الجمال الباهر ، والحسن السَّاحر ، والبياض الناصع الجذّاب : ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٍ ۞ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ . (الصافات ٤٨-٤٩)

ثانياً - اللون الأسود:

وهو لونٌ قاتم دالٌّ على الظلمة والجهل والكآبة والاستياء ، ويُعبّر به عن المجالات الآتية :

١- معرفة بدء الصيام:

وقد مرّ ذلك في حديثنا عن اللون الأبيض في آيات إباحة الأكل والشرب والجماع للصائم في أي الليل شاء ، وقد جُعل الخيط الأسود دليلاً على الليل . وسوادُ الليل موحش غير مؤنس ، تستتر تحت جُنحه الدواب والهوام والجانّ واللصوص والمجرمون ، ولذا فهو غير محبّب للنفس ، ولا مريح للأعصاب .

قال تعالى : ﴿وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ . (البقرة ١٨٧) .

٢- جبال الأرض:

ومن الجبال أصناف مُلوّنة بالسواد بفعل البراكين والعوامل الجوية ، وهي بالطبع آية ربانية تستلفت أنظار علماء الجغرافيا والبيئة والأدباء والمهتمين بالجمال ، ونجد هذا الطابع الأسود في جبال مكة المكرمة وغيرها ، كما نجد منها ما هو أشدّ سواداً ، ويطلق عليه الغربيب وجمعه غرابيب .[١٣]

قال تعالى : ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ . (فاطر ٢٧)

٣- وجوه المبشَّرين بالإناث:

وهؤلاء من كفار قريش وغيرهم إذا أُخبروا بولادة بنت لأحدهم ازدادوا غمّاً وحزناً ، فظهر ذلك على صفحات وجهه وقسماته ، فهو مُغبّر كدر مقطّب الجبين مكفهرّ الوجه ، فكأنّه قد اكتسى بغمامة سوداء لا تبرح مكانها إلاّ بدفن هذه المولودة حيةً في التراب خوفَ الفقر والعار!

والعجب أنهم ينسبون البنات إلى الله ، وهم الذين يأنفون منهن! والعجب أيضاً أنك تجد بعض المسلمين يسوّد وجهه حين يُرزق بالأنثى ، فربما لذلك طلّق أمّها ، وربما أصيب بأمراض نفسية من أمراض عصرنا الحاضر!

- ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ . (النحل ٥٨)

- ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ . (الزخرف ١٧)

٤- وجوه الكافرين يوم القيامة:

إنّ وجوه هؤلاء الكافرين والمشركين والمنافقين تعكس ما في قلوبهم من كفر مظلم ، ونفاق حاقد ، وجرائم بشعة ، فلا سبيل إلى إشراقها ، وهم يعانون من هول الحشر وكآبة المنقلب في نار جهنم ، فهي لذلك خاشعة عاملة ناصبة ترهقها قترة :

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ . (آل عمران ١٠٦)

ثالثاً - اللون الأحمر:

ورد صريحاً مرة واحدة في عند الحديث عن الجبال :

يشكّل اللون الأحمر جمالاً أخّاذاً في تلوين الجبال الشاهقة ، وإمتاع أنظار المتأملين في صفحة الكون العجيب ، ومن يطّلع على ما توصل إليه العلماء في علم الجبال يجد عظمة الخالق التي تتجلّى في كل ذرة في الوجود .

وما أعجب تلك اللفتة الكونية من اللفتات الدالة على مصدر هذا القرآن ، تبدأ بإنزال الماء من السماء ، وإخراج الثمرات المختلفات الألوان ، ثم تنتقل إلى ألوان الجبال ، ففي ألوان الصخور شبهٌ عجيب بألوان الثمار وتنوعها وتعددها ، واللفتة إلى ألوان الصخور وتنوعها داخل اللون الواحد تهزُّ القلب هزّاً ، وتوقظ فيه حاسة الذوق الجمالي العالي بما يستحق النظر والالتفات .(١٤)

قال تعالى : ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ . (فاطر ٢٧)

رابعاً - اللون الأخضر:

وهو لون طبيعي ماتع دالٌّ على الخصب والنماء في دنيا البشر ، وعلى السعادة والهناء في الآخرة ، وهو امتداد للخير العميم في مجالات كثيرة :

١- وجه الأرض:

بعد أن تكون الأرض يابسة هامدة شاحبة ينزل الله عز شأنه الماء من السماء فتنتعش وتهتز ، وتنبت من كل زوج بهيج ، فيكتسي وجهها حلةً قشيبة خضراء ينتفع منها الناس والدواب والأنعام :

قال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ . (الحج ، ٦٣)

٢- نبات الأرض وشجرها:

ومن نعم الله ودلائل قدرته وحكمته أن يُخرج من ماء السماء النباتَ والشجر ، ويلّونه باللون الأخضر رمز الحياة والبركة ، ويجعله مختلف الأشكال والطعوم والروائح ، فيخرج به الزرع والنخل وجنّات الأعناب والزيتون والرّمان :

- ﴿وَهُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُواْ إِلِى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ . (الأنعام ٩٩)

- ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ . (يس ٨٠)

٣- السنابل في رؤيا الملك:

وهو ملك مصر الذي سُجن يوسف عليه السلام في عهده ، رأى سبع بقرات هزيلات يبتلعن سبع بقرات سمان ، وسبع سنابل يابسة يأكلن سبع

سنابل خضر يانعة! ولم يستطع أحدٌ من رجاله وأصحابه أن يفسّر له رؤياه ، وفسّرها يوسف عليه السلام ، فكانت السنابل الخضر رمزاً لسبع سنين من الرخاء والنماء :

قال تعالى : ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ . (يوسف ٤٣)

٤- ثياب أهل الجنة:

إنها ثياب ربّانية الصّنع في غاية الجودة والحسن ، والجمال والزّينة ، يرفل بها أهل الجنة ، وهي على نوعين : السندس والإستبرق . أمَّا لونُها الزاهي فهو الأخضر الذي يُمتع أعينهم ، ويزيدها لذة وسروراً ، وفي أيديهم أساور الذهب والفضة واللؤلؤ ، ومن تحت غرفهم تجري أنهار النعيم :

- ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ . (الكهف ٣١)

- ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا * إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاء وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ . (الإنسان ٢١-٢٢)

٥- فرش الاتكاء في الجنة:

ومن صور تنعّم أهل الجنة أنهم يتكئون على فرش ووسائد خضراء اللون ، رائعة الحسن ، محلاة ببدائع الزخارف والزينة :

﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ * فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ . (الرحمن ٧٦- ٧٧)

خامساً - اللون الأصفر:

وهو أحد الألوان الأولية ،له مساحة واسعة في حياة الإنسان ، ومظاهرها المختلفة ، ولكنه عادة ما يدلّ على الذبول والشحوب والهزال ، ويدلّ على تصرّم الحياة البهيجة ، كما يدل على الأهوال والرعب والمعاناة .

١- نبات الأرض:

تتعاقب الألوان على نبات الأرض لحكمة عليا أرادها الخالق جلّ جلاله ، فأظهرتها آيات القرآن الكريم ، وهي أخذ العبرة والعظة بالتأمل والتفكّر :

فهذا الماء الذي ينزل من السماء ، ويُخرج النبات الأخضر النضر الذي يُعجب الناظرين ، ويستولي على أفئدتهم بحبه ورونقه ، لا يلبث أن تزول نضارته بعد اخضرار ، وتسوء حاله بعد حُسنٍ ، ويتحطم ويجفّ ، ويغدو هشيماً تذروه الرياح ، قد تلوّن بالاصفرار ، وغربت شمسُ هنائه ومسرّته ، وكذلك هي الدنيا فإنها إلى زوال ، ومن المحال دوام الحال :

- ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلاَدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ . (الحديد ، ٢٠)

- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ . (الزمر ، ٢١)

- ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ (الروم ، ٥١) .

٢- بقرة بني إسرائيل:

لمّا تخاصم بنو إسرائيل وتدافعوا بالتّهم بشأن أحد قتلاهم ، أتوا موسى عليه السلام ، فأمرهم أن يذبحوا بقرة ، فذبحوها بعد جدال عريض ، ومراوغة قبيحة

خوفَ العار والفضيحة! فأحيا الله سبحانه القتيل وأخبر عن قاتله .[١٥]

وقد كانت محنتهم لما شدّدوا على أنفسهم في لونها الأصفر ، وهو قليل نادر حتى كلفهم ذلك أن اشتروها بملء جلدها ذهباً ، ولو لم يعترضوا لأجزأت عنهم أدنى بقرة! ولكنّهم على الرغم من عثورهم عليها بهذا اللون إلا أنهم تمادوا في العناد واللجاجة :

﴿قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاء فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ . (البقرة٦٩)

ولما بين لهم أنها صفراء اللون شديدة الصفرة لم يقفوا عند هذا الحد ، بل تمادوا في الاعتراض ، فشدّد الله عليهم ، ثم هداهم إليها :

﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾ . (البقرة ٧١)

واللون الأصفر في البقر يبعث البهجة السرور في أعين الناظرين ، وهو يضفي عليها مسحة جمالية أظهرتها الآية الكريمة ﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ .

٣- شَرَر جهنم:

رسم القرآن الكريم صورة مروّعة لشرر جهنم مستقرّ الكفرة والمجرمين ، فالشرارة الواحدة كالقصر العظيم في الضخامة ، وهي في سرعة حركتها ولونها كالإبل الصّفر ، وهذا التشبيه من روائع صور التشبيه ؛ لأن الشرارة إذا كانت مثل القصر الضخم ، فكيف تكون حال تلك النار الملتهبة ؟! أجارنا من نار جهنم بفضله ورحمته .(١٦)

﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ * كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ . (المرسلات٣٢-٣٤)

سادساً - اللون الأزرق:

لو ساءلت بعض الذين يختمون القرآن مرة في الشهر ، ولا يتدبرون ما فيه : هل ورد اللون الأزرق في إحدى آياته ؛ لأجابوا واثقين : كلا! وعندما تؤكد لهم

وروده يتعجبون ويستغربون!

واللون الأزرق أحد الألوان الأولية الثلاثة المعروفة ، وزرقة البحار والسماء لا تخفى على ناظر ، ولهذا فهو يُشكل مساحة كبيرة في الامتداد الطبيعي لمناظر الدنيا الفسيحة ، ولكنه في موازين الدار الآخرة يصبح علامة دالة على المجرمين ، يلوّن عيونهم ، ويشوّه خِلْقتهم ، ويتَّحد مع اللون الأسود الذي يوشّح وجوههم في إبراز هُويّتهم على رؤوس الأشهاد ، حيث يعرفون بسيماهم ، بعد أن كانوا ينعمون في الدنيا بالألوان الزاهية في أبدانهم وملابسهم ومزارعهم وعماراتهم ودوابهم!

وقد انقضت دنياهم كأنّها ساعة من النهار ، أو يوم أو عشرة أيام كما يزعمون ، وهم في أهوال الحشر : ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا * يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْرًا * نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْمًا﴾ . (سورة طه١٠٢-١٠٤)

وبعد هذه الجولة الممتعة في الظلال الوارفة لآي الذكر الحكيم يمكننا أن نُقرّر النتائج التالية فيما يتعلق بالألوان الصريحة الواردة آنفاً :

١- شمول الألوان لأوجه حياة الإنسان كافة في الدنيا والآخرة :

في جسم الإنسان كاليد ، والعين ، والوجه .

وفي الأحلام : لون السنابل في رؤيا الملك .

وفي النبات : الأخضر منه والأصفر .

وفي الحيوان : بقرة بني إسرائيل والإبل الصّفر .

وفي الأرض : وجهها وجبالها .

وفي الجنة : كأسها وثيابها وفرشها ورفرفها .

وفي النّار : شررها .

٢- ارتباط عبادة الصيام باللون : وذلك لتمييز بدء الصيام ونهايته باللونين الأبيض والأسود .

٣- اعتماد برهان بعض المعجزات على اللون : اللون الأبيض في يد موسى عليه السلام .

٤- إضفاء الألوان على الطبيعة لوظيفة الإمتاع والابتهاج : الخضرة في وجه الأرض ، وألوان جبالها ونباتها وحيوانها .

٥- الرمز باللون إلى الحرف والمهن : اللون الأخضر في رؤيا ملك مصر رمز إلى الزراعة .

٦- تعبير النفس عن حالتها بإفراز الألوان على الأعضاء والجوارح :

أ- حالة الهناء والسرور : اللون الأبيض على وجوه المؤمنين يوم القيامة .

ب- حالة الحزن والكمد والغيظ :

- اللون الأسود على وجوه المبشرين بالإناث ، وعلى وجوه الكفار يوم القيامة .
- اللون الأبيض في عيني سيدنا يعقوب عليه السلام .
- اللون الأزرق في عيون المجرمين في المحشر .

٧- استخدام اللون للإنذار والتخويف من عذاب الله ، والتشبّه بالكفار والمجرمين :

- اللون الأصفر في شرر جهنم .
- اللون الأسود في وجوه الكافرين .
- اللون الأزرق في عيون المجرمين .

٨- استخدام اللون لإثارة المؤمنين للتطلع إلى نعيم الجنة :

- اللون الأبيض : كأس أهل الجنة .
- اللون الأخضر : ثياب أهل الجنة وفرشها .

٩- الكشف عن تعلّق النفس البشرية باللون : ﴿أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾ و﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ .

١٠- ضرب المثل بالألوان للاعتبار بتعاقبها وتغيّرها :

مثل الحياة الدنيا في مسرّتها ثم زوالها كمثل الزرع الأخضر النضر المتحوّل

إلى الاصفرار ثم التلاشي :

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ . (الحديد ٢٠)

الهوامش:

(١) مجلة الفيصل ، س١٢ ، ع ١٣٨ ، ١٩٨٨م-١٤٠٨هـ ، مقال «حديث الجمال في القرآن الكريم» . د . السيد رزق الطويل ، ص (٢٨ - ٣٠) .

(٢) انظر : محمد قطب منهج الفن الإسلامي ط٦ ، دار الشروق ، بيروت ١٤٠٣هـ١٩٨٣ ص (٨٥-٩٦) .

(٣) رواه مسلم ، في كتاب الإيمان ، باب تحريم الكبر وبيانه ، م١ ، ج٢ ، ص ٨٩ .

(٤) رواه أبو داود في اللباس ، باب في البياض ، والترمذي في كتاب الجنائز ، باب ما يستحب في الأكفان رقم (٩٩٤) ، وقال : حديث حسن صحيح .

(٥) رواه البخاري في باب اللباس ، باب الثوب الأحمر ، ورواه مسلم في فضائل النبي ، باب في صفة النبي ، وأنه كان أحسن الناس وجهاً .

(٦) رواه أبو داود في اللباس ، باب الرخصة في اللون الأحمر ، والترمذي في أبواب الأدب ، باب ما جاء في الثوب الأخضر بلفظ «بردان» رقم (٢٨١٣) .

(٧) رواه مسلم في كتاب الحج ، باب جواز دخول مكة بغير إحرام .

(٨) انظر : د . أحمد زكي ، في سبيل موسوعة علمية ، ط٥ ، دار الشروق ، بيروت- القاهرة ١٤١٢هـ١٩٩٢م ، ص ٣٩١-٣٩٩ .

(٩) انظر : مختصر ابن كثير ، اختصار محمّد علي الصابوني ، دار الفكر- بيروت ، ١٦٥/١ .

(١٠) بين المحققون من العلماء أنّه - أي تقسيم الكلام إلى حقيقة ومجاز - اصطلاح حادث بعد انقضاء القرون المفضلة ، لم يتكلم به أحد من الصحابة ، ولا التابعين لهم بإحسان ، ولا أحد من الأئمة المشهورين كالأئمة الأربعة وأمثالهم ، بل ولا تكلم به أئمة اللغة كالخليل وسيبويه ونحوهما ، ولم ينقل أحد عن العرب تقسيم الكلام إلى حقيقة ومجاز ، وأول من عرف بهذا التقسيم من المتأخرين المعتزلة وغيرهم من أهل الكلام ، ومن سلك طريقتهم في ذلك ومنهم الشريف الرضي .

(١١) انظر : محمّد علي الصابوني ، صفوة التفاسير ، دار الفكر - بيروت ، ١٢٣/١ .

(١٢) انظر : د . أحمد زكي ، «في سبيل موسوعة علمية» ص (٣٠٤-٣٠٥) .

(١٣) انظر : المعجم الوسيط ، د .إبراهيم أنيس ورفاقه ، ط٢ ، مادة «غرب» ص ٦٤٨ .

(١٤) انظر : سيد قطب ، في ظلال القرآن ، ط١٧ ، دار الشروق - القاهرة - بيروت ، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م ، (٢٩٤٢/٥) .

(١٥) انظر القصة كاملة في مختصر ابن كثير ، (٧٦/١-٧٧) .

(١٦) انظر : صفوة التفاسير ، ٥٠٣/٣ .

الخِطاب القرآنيّ في سُورة الحَشر: طرائقه التعبيريّة ومضامينه البيئيّة

- خطر داهم وواقع مُرعب
- الخطاب القرآنيّ وخبراء البيئة
- مدارسة جمالية للخطاب القرآنيّ
- أنماط الخطاب القرآني ومفاهيم البيئة

الخِطاب القرآنيّ في سُورة الحَشر: طرائقه التعبيريّة ومضامينه البيئيّة

احتفى القرآنُ الكريم بالبيئة أيّما احتفاء ، وآيةُ ذلك إشاراته الصريحة إلى ما فيها من بديع الصنع ، ودقّة التكوين ، وروعة التنسيق التي تُرى ماثلة في المروج الخضراء ، والجنات المعروشات ، والأنهار الجارية ، والفِجاج الممتدة ، والجبال الشاهقة :

﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ .(١)

وقد لفتَ القرآنُ - بأسلوبه البليغ وخطابه المتفرّد - أنظارَ الناس إلى ما في البيئة من جمال الإبداع والإنشاء ، وسِحْر الظلال والألوان والأضواء ، ودعاها إلى النظر كَرّة بعد كرّة تأمّلاً وتدبّراً واستمتاعاً ببديع خَلْق الله :

﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ .(٢)

ومن آيات احتفاء القرآن بالبيئة دعوتُه إلى الإبقاء على ما أودع الله فيها من مكوّنات نافعة ، وكائنات حيّة ، ومظاهر جمالية ماتعة ، وظواهر طبيعيّة باهرة ، وتحذيره من إفسادها وتشويهها :

﴿وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا﴾ .(٣)

والبشرية اليوم أحوج إلى هذا الخطاب القرآنيّ الذي يولي البيئة عناية فائقة ، وقيمة كبرى ، ويجعل رعايتها والحفاظ عليها جزءاً من العبادة ، فقد غدتْ قضايا البيئة تشغلُ حيزاً كبيراً من تفكير الإنسان في العصر الراهن لما يحدقُ به من خطر داهم يُهدّد استقراره ، ويُروّع أمنه ، ويزيدُ في قلقه على البقية

الباقية من نقاء هوائه ، وعذوبة مائه ، وجودة غذائه .

وممّا يُعكّر صفو إنسان هذا العصر ، ويقضّ مضجعه ، أنّه يعيش في عصرٍ مسبوق بتراكم هائل للثقافات الإنسانية والتفاعلات البيئية منذ آلاف السنين حين شرع الإنسانُ الأول بالصيد وجَمْعِ غذائه بطريقة بدائية ، ثمّ أنشأ اقتصاده على الرّي في الحضارات النهريّة على ضفاف النيل ، وفي بلاد ما بين النهرين حيث قامت نهضة زراعيّة كبرى مهدّت لقيام الثورة الصناعيّة سنة (١٨٠٠م) تقريباً ، وأسهمت في التحوّل إلى العصر الصناعي المذهل منذ ذلك الحين وحتى الوقت الحاضر ، وهي أشدّ فترة بلغ فيها التأثير البشريّ حدّه الأقصى على البيئة .(٤)

خطر داهم وواقع مُرعب:

وإنّ نظرةً عجلى يلقيها المستطلع على التقرير العالميّ الذي أعدّه برنامج الأمم المتحدة للبيئة لتكشف عن المشكلات البيئية المتفاقمة في مختلف مناطق العالم : فالأراضي الزراعية تعاني من التدهور بسبب الامتداد العمرانيّ ، وسوء استغلال الموارد الأرضيّة ، ودورات الجفاف ، والرَّعي الجائر ، وتعرية التربة ، وعمليات التصحر .

والمشكلة المائية جدّ خطرة ؛ إذ تمثّلت في تزايد الطلب على الماء العذب ، وتلّوث مياه الشرب والصّرف الصّحي حيث يموت كلّ يوم نحو (٢٥) ألف إنسان ، ويُحرم من المياه النظيفة أكثر من ثلث سكان العالم ، أي نحو (١,٧ بليون نسمة)!

وفي مجال الغابات والتنوّع البيولوجي تتعرض حياة النبات والحيوان إلى تهديدات متزايدة بسبب الرعي الجائر ، والقنص العشوائيّ ، وفقدان الغطاء النباتي الطبيعيّ .

والبيئات البحرية والساحلية تعاني من الملوّثات النفطية ، ومخلّفات الصناعة ، ومخاطر السياحة ، وانخفاض المخزون السمكيّ ، وتلويثها بمياه الصرف الصحيّ .

وأمّا البيئات الحضرية والصناعيّة فتشهد مشكلات متعددة الوجوه كتلوث الهواء ، وتدهور طبقة الأوزون بمعدل أسرع من التوقعات ، وتراكم المخلّفات نتيجة للتصنيع السريع ، وكثرة النفايات التي تُهدّد المدن بالتلوث الخطر .(٥)

الخطاب القرآنيّ وخبراء البيئة:

والمؤلم المقلق أنّ خبراء البيئة يتوقّعون تزايداً في المخاطر المحدقة بها دون أن يجدوا لها حلولاً ناجعة غير التحذير والاستنفار .

بل يزعم كثير منهم ومن أرباب العقائد المنحرفة والمذاهب الفاسدة أنّهم قادرون على حلّ مشكلات البيئة ، وترفيه إنسان القرن الجديد وإغراقه بنعيم التقنية المتقدمة ، والعجب أنّهم أنفسهم غير قادرين على حلّ مشكلات أسرهم الصغيرة ، فما البال بحلّ مشكلات عالم يموج في الفوضى ، ويغوص في أوحال التلوث الفكريّ والاقتصاديّ والبيئيّ؟!

وما أشقى البشرية إذا انتظرتْ هؤلاء المفلسين ليحلّوا مشكلاتها ببنات أفكارهم التي ما زادتها غيرَ تخسير ؛ لأنّها ستبقى تتخبّط في بيئة قذرة ، وحياة صاخبة خاسرة ما لم تفوّض أمرها إلى الله عز وجلّ بتحكيم شرعه وسُنة نبيّه ، وحينئذ سيعود التوازن إلى البيئة ، وتنعم الإنسانية بالرَّفاء والرخاء ، ويرتفع السّخط والقحط ، وتسود القيمُ السَّامية ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، وتفرح البشرية بهذا الإنجاز الكبير .

ولو تدّبر خبراءُ البيئة سورةً واحدة من الآي الحكيم لوجدوا إشارات مُعجزة ، ومفاهيم أصيلة ، ومفاتيح باهرة في التعامل مع البيئة في السّلم والحرب ، تنقذُ البيئة من محنتها ، وتُخرج الإنسانية من حَيرتها ، لو تدبّروا لعلموا مبلغ إفلاسهم وعجزهم .

مدارسة جمالية للخطاب القرآنيّ:

وبين يدي مدارسة الجوانب الجمالية في الخطاب القرآنيّ المتّصل بالبيئة –

سورة الحشر ، وهي سورة مدنية أُنزلت في بني النضير ، وهم طائفة من اليهود الذين نقضوا العهد مع الرسول عليه السلام فحاصرهم ثمَّ صالحهم على الجلاء من المدينة .[٦]

جاء في حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال : «حاربت النضير وقريظة فأجلى بني النضير وأقرَّ قريظة ومَنْ عليهم حتى حاربت قريظة فقتلَ رجالهم ، وقسم نساءهم وأولادهم وأموالهم بين المسلمين إلا بعضَهم لحقوا بالنبي عليه السلام فأمنهم وأسلموا وأجلى يهودَ المدينة كلَّهم بني قينقاع ، وهم رهط عبد الله بن سلام ويهودَ بني حارثة وكلَّ يهودِ المدينة» .[٧]

ويمكن أن نقسّم عناصر البيئة - التي خصَّها الخطاب القرآنيّ في سورة الحشر - إلى الأنواع التالية :

- المظاهر الطبيعيّة : الديار ، والبيوت ، والحصون ، والقرى ، والجبال .
- عالم النبات : النخيل .
- عالم الحيوان : كالخيل والإبل والرّكاب .
- الفئات الاجتماعيّة المسلمة : كذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والأغنياء والمهاجرين والأنصار .
- الأمم والشعوب والمِلل : كاليهود والمنافقين والأمم الكافرة والشياطين .

أنماط الخطاب القرآني ومفاهيم البيئة:

عبّر الخطاب القرآنيّ عن العناصر البيئية الواردة في السورة الكريمة أجملَ تعبير ، وتجلّت دلائل هذا التعبير في الارتباط العضويّ بين خصائص الخطاب البلاغية ، ومفاهيم البيئة الأصيلة المتميزة ، وتمثّل ذلك في الطرائق الجمالية والموضوعيّة التالية :

أولاً- شمولية الخطاب ومفهوم البيئة الكبرى:

يُحدّد المهتمّون بالبيئة تعريفاً قاصراً لها وهو : أنّها كُلّ ما يحيط بالإنسان

من نبات وحيوان وجماد ، أو هي الإطار الذي يعيش فيه الإنسان ، ويحصل منه على مُقوّمات حياته .[٨]

وهو تعريف أرضيّ ينمُّ عن قصور في فهم الصّلة بين الخلق والخالق سبحانه ، ولكن البيئة في الخطاب القرآنيّ تشمل الأرض وما فيها من كائنات ومخلوقات ، والسموات وما فيها من أجرام وفضاءات ، وهي بهذا المفهوم المتميّز بيئة كبرى مسخّرة للإنسان ؛ لأنّ الله استخلفه فيها ، وجعله محورها الرئيس :

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ .[٢]

ونلحظ أنَّ الآية الكريمة عبّرت عن هذا المفهوم باللفظ الموجز اليسير ، واستعملت كلمة السموات بصيغة الجمع وكلمة الأرض بصيغة الإفراد ، وللقرآن في ذلك حكم بلاغيّة ، ولعلّ استعمال السموات هنا بصيغة الجمع يأتي لمعنى الإحاطة والاستقصاء والشمول ؛ إذ يُؤثر القرآن استعمال بعض الكلمات بصيغ الإفراد أو التثنية أو الجمع لأغراض بلاغية خاصّة ، وهو شيء لم يُسبق في كلام العرب ، إذ يجعل لهذه الكلمات حياة خاصة تعيشها في نفس المستمع أو القارئ ، وتصبح إشارة داخلية ترمز إلى معانٍ معيّنة حال صدور تلك الكلمات .[٩]

ثانياً- تلوين الخطاب ومفهوم الخضوع الكونيّ:

وهذه البيئة الكبرى خاضعة طائعة لخالقها ، تسبّح له وتمجدّه وتقدّسه ، فهي غير متمردة ، ولا تحتاج إلى سيطرة عليها ، وقهر لطبيعتها كما يرى علماء البيئة في أيامنا هذه ، «فالطبيعة لا تستوي والإنسان في المنزلة ، ولا ترقى عليه ، وإنما هي دونه في سلّم الرقي الكونيّ ، فهي مُذللة له ، ومسخّرة له ، لا فرق في ذلك بين الحيوان الذي سُخّر لحمله من مكان إلى مكان ، ولا بين النبات الذي جعلَ له فاكهة وطعاماً ، وبهجة وزينة» .[١٠]

وهي بيئة حيّة متفاعلة من أدنى ذرّة فيها إلى أعظم نجم عملاق ، وليست خرساء صمّاء ، ولا بلهاء شوهاء :

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ . (١١)

وقد استعملت الآية الكريمة الفعلَ الماضي «سبّح» للدلالة على خضوع الكون كلّه لخالقه ، وهو تسبيح خاصّ لا يدركه الناس ، ولا يعرفون كُنهه :

﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ . (١٢)

وفي إخبار الله عن تسبيح الكون له إيماءةٌ لبني آدم أن يسبّحوه ويعظّموه ، فهم أولى بتسبيح الله من الكائنات الأخرى ، وهذا لون من البلاغة طريف يقال له : تلوين الخطاب . فالجملة خبرية في اللفظ ، إنشائية في المعنى ، أي : سبِّحوا الله .

ولذلك يستشعر المسلم في تعامله مع البيئة بحياتها وحيويتها وتفاعلها ، فأطيارها تنطق ، (كهدهد سليمان) ، ونحلها يتّخذ من الجبال بيوتاً بوحي ربانيّ ، ونملها يحذّر وينذر ، وجبالها تُحبّ (كجبل أحد) ، وهي كُلّها تسبح بحمد الله ، ويوم القيامة تُحدّث أخبارها .

ثالثاً- تناسب الخطاب ومفهوم وحدة الكون:

يقرّر الخطاب القرآني أنّ الكون كُلّه بمجموعه وحدة عضوية متكاملة ، وهو مترابط الأجزاء ، متداخل التفاعلات ، فلا ينبغي أن يُنظر إلى جزء منه دون جزء كالنظرة المعاصرة القاصرة ، بل يجب التعامل معه على أنَّه كيان واحد حيّ ، وأن يسير الإصلاح البيئي والإعمار البشريّ في خطوط متوازنة متوازية في البيئات المختلفة : الإنسانيّة والحيوانية والنباتيّة والطبيعيّة ، وأن يستلهم ذلك التصوّر من خالق الملكوت العزيز في ملكه ، والحكيم في صُنعه : ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ .

وهذا الجزء المتمم للآية الكريمة ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ارتبط بها ارتباطاً وثيقاً ، وهو فنّ بيانيّ وعلم من علوم القرآن يطلق عليه علم التناسب القرآنيّ . ومعرفة التناسب والمناسبات بين الآيات مظهر من مظاهر مراعاة السياق في

الفهم والتفسير ، وفائدته جعل أجزاء الكلام بعضها آخذاً بأعناق بعض ، فيقوى بذلك الارتباط ، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء .(١٣)

رابعاً- الخطاب الحكائيّ لتغيير النفوس المفسدة:

يسلك القرآن الكريم أسلوب الحكاية ليصوّر جانباً مما حدث ليهود بني النضير ، وما أحدثوا من إفساد وتخريب ، وليعبّر عن جانب هامّ في تغيير النفوس المفسدة ، وهو الجانب الأخطر الذي يغفل عنه دعاة إصلاح البيئة ، ولكنَّ القرآن الكريم يوليه عناية فائقة ، فيُقرّر أن الخطوة الأولى في الإصلاح والتغيير تنبعُ من تغيير النّفوس من الضلال والإفساد إلى الهدى والرّشاد :

﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ .(١٤)

والقرآن الكريم يُقرّر أنّ اليهود هم أكثر الأمم إفساداً في الأرض لكفرهم بالله وآياته ، وقتلهم الأنبياء صفوة الخلق ، واعتدائهم على النّاس ، وإهلاك الحرث والنسل ، ونقض العهود والمواثيق ، ولا بدَّ من إخراجهم وإجلائهم من بيئة المؤمنين ؛ لتظل سليمة نظيفة يعمرها الإيمان ويزينها الطهر .

فماذا فعلوا بالبيئة لّما حاصرهم الرسول عليه السلام ؟

خربّوا بيوتهم بأيديهم ، وقلعوا العمد ، ونقضوا السّقوف ، ونقبوا الجدران ، لئلا يسكنها المؤمنون حسداً منهم وبغضاً!(١٥)

وأمّا ما نالَ بيوتهم من المؤمنين من خارجها فكان بقصد اقتحام حصونهم لّما تحصّنوا فيها ، وإرغامهم على الخروج :

﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ * وَلَوْلاَ أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاَءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾ .(١٦)

ونلحظ في هذا الخطاب الحكائيّ سلاسة السرد وحلاوته ، وجمال الترتيب

المكانيّ من الأكبر إلى الأصغر ، إذ ابتدأ بذكر الديار ثمَّ الحصون ثمَّ البيوت . واستعمالُ ضمير الغائبين «هم» الذي أضيفت إليه الديار والحصون والبيوت ينبئ عن شدّة تعلّقهم بهذه الأماكن ، وحرصهم على البقاء فيها ، واعتقادهم الجازم أنّهم لن يخرجوا منها أبداً .

وسلوك هذا الأسلوب الحكائيّ تميّزٌ لا نظير لحلاوته وجماله في كتب الأولين والآخرين ، وإنَّ نظرة في التوراة التي بين أيدينا اليوم لتكشف عن اختلاف في الروايات ، واضطراب في الخطاب ، وتفاوت في الأسلوب ، ممّا يشير إلى أنَّ هذه الصحائف هي نتاج أناس مختلفين وعقليات متباعدة ، فتجد أجزاء تخلو تماماً من الجمال الأدبيّ والحسّ اللغويّ ، وتجد جفافاً وعدم اتساق في فقرات القصص والروايات وفي الكثير من التشريعات وما يتصل بالقوانين .(١٧)

خامساً- الخطاب الإصلاحيّ ومفهوم محاربة الفساد:

يتسم الخطاب الإصلاحيّ في القرآن بالقوة والتكثيف والإيجاز ، ويستعمل في بعض المواضع أداة النهي الصريحة ، وهي «لا» الناهية الجازمة ، تلك الأداة التي يجب أن تُشهر في وجوه المفسدين في كلّ زمان ومكان :

﴿وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا﴾ .(١٨)

ويرتكز الخطاب الإصلاحي على منهاج ينبثقُ من الإيمان بالله ، وابتغاء مرضاته ، وعدم مخالفة أوامره ، ومن اتباع رسوله ، وعدم تنكّب طريقه ، وهو منهاج مستمدّ من الكتاب الحكيم ، والسنة المشرّفة ، وليس مستمداً من أهواء العابثين ، أو نظريات المفلسين ، أو آراء قدامى الوثنيين . وقوامُ هذا المنهاج أمرُ الله بالإصلاح ونهيُه عن الإفساد :

﴿وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا﴾ .

فهو سبحانه ينهى عن الإفساد بشتى صوره :

في العقائد كتوريث العقائد الشركية في النفوس ، ونشرها بين الناس ، وفي

العبادات بتركها وإهمالها وإدخال البدع عليها ، وفي الأحكام بتعطيلها والاستعاضة عنها بغيرها ، وفي الأخلاق بالتنفير من الفاضلة الحسنة منها ، وإحلال العادات السيئة محلّها ، وفي الآداب بالعربدة والفحش والبذاء المنافي للعفة والحياء . وفي الإنسان بامتهانه ، والغضّ من شرفه ، وإفساد عقله ، وإفساد جارحة من جوارحه ، وقتله وإزهاق روحه ، وفي الحيوان بتعطيل منافعه كقطع نسله ، أو قتله وإزهاق روحه ، وفي النبات بقطع أشجاره وإحراق محاصيله ، أو بمنع الماء عنه ، وعدم الاعتناء به ، وفي المعادن بعدم استخراجها وتعطيل منافعها ، واستخدامها فيما يضرّ الإنسان .(١٩)

وكُلّ الذين لا ينطلقون من هذا المفهوم الإصلاحيّ فهم المفسدون في الأرض ، وإنْ تبنّوا حماية البيئة والمحافظة عليها ، وانضمّوا إلى جمعياتها وأنصارها :

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُون * أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ﴾ .(٢٠)

وما حلّ ويحلّ بالبيئة اليوم إنّما هو بسبب الإعراض عن هذا المنهاج الإصلاحي القويم :

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ .(٢١)

سادساً- الخطاب التسويغيّ ومفهوم الإذن الإلهيّ:

وهو خطاب يسوّغ التغيير في البيئة الصالحة لمقصد نبيل وغاية سامية ، وذلك في ظرف خاصّ مرتبط بالإذن الإلهيّ ، ذلك أنّه ليس لأحد أن يغيّر شيئاً في البيئة الصّالحة إلاّ بما يوافق الهدي القرآنيّ ، بل لا يملك الرسولُ نفسه ولا المؤمنون أنْ يغيّروا إلاّ بأمر الله وإرادته لحكمةٍ عظيمة بالغة .

وما فعله بعضُ الصحابة من قطع نخيل بني النضير لمّا حاصروهم فقد كان بإذن الله إرعاباً لبني النضير وزيادةً في إغاظتهم وإهانتهم وإخزائهم :

﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾ .(٢٢)

قال صاحب أضواء البيان : «والذي يظهر – والله تعالى أعلم– أنَّ الإذن المذكور في الآية هو إذن شرعي ، وهو ما يؤخذ من عموم الإذن في قوله تعالى : ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير﴾ لأن الإذن بالقتال إذن بكلّ ما يتطلبه بناء على قاعدة الأمر بالشيء أمر به ، وبما لا يتم إلا به .

والحصار نوع من القتال ، ولعل من مصلحة الحصار قطع بعض النخيل لتمام الرؤية أو لإحكام الحصار ، أو لإذلال وإرهاب العدو في حصاره ، وإشعاره بعجزه عن حماية أمواله وممتلكاته ، وقد يكون فيه إثارة له ؛ لينيدفع في حمية للدفاع عن ممتلكاته وأمواله فينكشف عن حصونه ، ويسهل القضاء عليه ، إلى غير ذلك من الأغراض الحربية التي أشار الله تعالى إليها في قوله : ﴿وليخزى الفاسقين﴾ أي : بعجزهم وإذلالهم وحسرتهم ، وهم يرون نخيلهم يقطع ويحرق ، فلا يملكون له دفعاً .

وبهذا يمكن أن يقال إذا حاصر المسلمون عدواً ورأوا أن من مصلحتهم أو من مذلة العدو إتلاف منشآته وأمواله فلا مانع من ذلك ، والله تعالى أعلم» .(٢٣)

وقد تشرّف الصحابة الكرام بهذا الخطاب المباشر الموجّه لهم ، ويُستشف من إيحائه وتأثيره مبلغ رضوان الله عمّا فعلوا ، ومبلغ سخط الله على بني النضير المجرمين ، ومبلغ سعادة الصحابة وارتياحهم لما نالهم من مرضاة الله ومباركته وتأييده .

وهو إيحاء وإحساس يتمثل في كلمات القرآن الذي «لا يسرف على النفس ، ولا يستفرغ مجهودها ، بل هو مقتصد في كلّ أنواع التأثير عليها ، فلا تضيق به ، ولا تنفر منه ، ولا يتخوّنها الملال ، ولا تزال تبتغي أكثر من حاجتها في التروّح والإصغاء إليه ، والتصرّف معه ، والانقياد له ، وهو يسوّغها من لذتها ،

ويرفّه عليها بأساليبه ، وطرقه في النظم والبيان» .[٢٤]

والعجب أن اليهود المفسدين في الأرض اتهمّوا النبي عليه السلام بالفساد لّما أمر بقطع نخيلهم فقالوا : إنّك تنهى عن الفساد ، فما بالك تأمر بقطع الأشجار؟ فأنزل الله هذه الآية الكريمة .[٢٥]

والحقّ الدامغ أنَّ تسارُعَ إنتاج الأسلحة النوويّة في أيامنا الحاضرة وبخاصة من قبل دول (النادي الذريّ) له عواقب وخيمة على الإنسان والبيئة ، وأنّ تلك الأسلحة ليست ألعاباً يتسلّون بها ، بل هي كوارث مدمرة تحمل القتل والرعب والدّمار الشامل ، وما فعلته الولايات المتحدة بمدن اليابان وفيتنام وأفغانستان والعراق ليس ببعيد .

فمن أذنَ لهم بقتل آلاف الأبرياء وحرق أحيائهم وتشويه خلق الله؟!

ومن أذنَ لهم بإنفاق بلايين الأموال على إبادة البشر وتسميم البيئة؟!

وشتّان بين ما فعله الرسولُ عليه الصلاة السلام وصحابته الذين قطعوا بعض الأشجار بإذن الله ، وما فعله هؤلاء المجرمون الذين أبادوا مدناً كاملة ، وزلزلوها زلزالاً شديداً ، وسمّموا بإشعاعاتهم النووية مساحات هائلة ، وكذلك فعل أشياعهم الروس في مفاعل «تشرنوبل» .

وشتان بين فهم الرسول عليه الصلاة السلام وصحابته لإذن الله وفهم الغرب الصّليبيّ والشرق الوثني لإذن الشيطان ، وشتان بين المسلمين المعاصرين الذين تركوا الأخذ بأسباب القوة ، وركنوا إلى الدّعة ودعوات «السَّلام» ، واليهود الذين يعيثون في الأرض فساداً ، ويُعِدّون لحرب نوويّة تدّمر كُلّ شيء .[٢٦]

سابعاً- الخطاب التنظيميّ ومفهوم إدارة الموارد البيئيّة:

يتميّز الخطاب القرآنيّ المتعلّق بإدارة الموارد البيئية بحسن العرض ، ودقة التنظيم ، وجمال التقسيم ، فقد أسند الله تعالى أمر إدارة الفيء إلى رسوله الأمين ؛ لأنّه القدوة الحسنة لكلّ المصلحين الحريصين على سلامة الإنسان وصحة البيئة .

والفيء هو «كلّ مال أُخذ من الكفار من غير قتال ولا إيجاف خيل ولا ركاب كأموال بني النضير هذه ، فإنها مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب ، أي لم يقاتلوا الأعداء فيها بالمبارزة والمصاولة» .(٢٧)

وقد أمر الله رسوله الكريم أن يُصرّف هذه المكتسبات ، ويتصرّف بها وفق الأسس التالية :

أ- أنّها لله يضعها حيث يشاء ، أُخذت بإرادته ونصره لرسوله .

ب- وأنّها للرسول يصرفها على نفسه ، وعلى مصالح المسلمين .

ج- وأنَّ عليه أن يوزّعها على الفئات المحتاجة : ذي القربى ، واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل والفقراء المهاجرين .

د- وأن عليه أن يمنع احتكار الأغنياء للأموال لضمان جريانها والانتفاع بها :

﴿وَمَا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلاَ رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَن يَشَاء وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * مَّا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاء مِنكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ * لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ .(٢٨)

وفي الآيات الكريمة مظاهر من صور الجمال تتمثّل في المقابلة الرائقة بين قوله تعالى :

﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ وقوله ﴿وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ والمقابلة فنّ راق من فنون البديع .(٢٩)

ثامناً- الخطاب التعزيزيّ ومفهوم ديمومة المؤاخاة:

يُعدّ ما كان من مؤاخاة بين المهاجرين والأنصار أروع أُنموذج للتآلف والتوادّ في تاريخ البشرية الطويل ، حيث أقاموا معاً المجتمع الإسلاميّ الفريد ، وعمّروا

الأرض بالخلافة الراشدة ، وضربوا أحسن الأمثال للشعوب المعاصرة في التلاحم الاجتماعيّ ، والبناء الحضاريّ .

ومعلوم أن الهجرات السكانية تؤدي إلى الخلخلة الاجتماعية ، واختلال التوازن البيئيّ ، ولكنّ هذا لم يحدث قطّ في مجتمع المهاجرين والأنصار لسرٍّ واحد هو المؤاخاة ، وقد احتفى الخطاب القرآني بهذه المؤاخاة ، وأثنى عليها ،وعزّز أصحابها ، وبشّر السائرين على دربها بثمارها اليانعة ، وتجلّى ذلك في عدّة صور بيانية أظهرت :

أ- حُبّ الأنصار الصّادق للمهاجرين .

ب- إشراك الأنصار للمهاجرين في أموالهم ومنازلهم ومزارعهم .

ج- خلو صدور الأنصار من حسدِ المهاجرين لما نالهم من الفيء والغنائم .

د- الإيثار المتبادل في أسمى معانيه .

هـ- تشرّب الأجيال المتتابعة حُبّ المؤمنين السابقين والدعاء لهم بالمغفرة والرحمة من غير غلّ ولا حسد :

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ .(٣٠)

وقد أخذ هذا الخطاب التعزيزيّ بطرف وافر من الجمال البياني مثل :

- استعمال الاستعارة المأنوسة في قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ﴾ إذ شبَّه الإيمان بالمكان المستقر المحبّب إلى النفس .
- روعة الأدعية وحلاوة سبكها ، وجمال التكرار في كلمة :»ربّنا» .
- عذوبة جَرس ألفاظ الخطاب ، وهدوء إيقاعها ، إذ إنَّ ألفاظ القرآن تتميّز قيمُها التعبيريّة بجرسها الذي تلقيه في الأذن ، وبقدرتها على إثارة الخيال ، فثمّة

كلمات ذات جرس هادئ ، وكلمات تعتمد قوة الجرس الذاتية في بنائها اللفظي أداةً للتعبير والإيحاء .(٣١)

وعلى ضوء هذا الخطاب الجميل والمفهوم السَّامي فلن ينجح دعاةُ حماية البيئة في إصلاحها وإعمارها إلاّ إذا تمكنّ الحبّ والإيثار في نفوس البشر ، ونزعوا ما في قلوبهم من أغلال وتحاسد ، وهيهات هيهات!

تاسعاً- الخطاب الوقائيّ ومفهوم رَصد الفئات المفسدة :

يقرّر الخطاب القرآنيّ أنّه لا بدّ من الكشف عن هُويّات المفسدين وصفاتهم إذا ما أُريد للقيم الإيمانيّة أن تسود ، وللحياة أن تعمرَ بالخير والصّلاح ، وللبيئة أن تسلمَ من التلّوث والكوارث ؛ لأنَّ في كشف المفسدين وقايةً كبرى للأنفس والبيئة والأوطان .

وقد كشف القرآنُ عن هذه الفئات المفسدة ، وقسَّمها أربعة أصناف ، وجعلها في دائرة واحدة دائرةِ المفسدين في الأرض ، وهم :

أ - المنافقون .

ب - أهل الكتاب من اليهود والنصارى .

ت - الكُفّار من العرب وغيرهم .

ث - الشيطان الرَّجيم وذرّيته وأتباعه .

كما كشف القرآن عن صفاتهم القبيحة وأخلاقهم الذميمة وهي :

أ- موالاة بعضهم بعضاً ، وتعاونهم على محاربة المسلمين ، وإهلاك الحرث والنسل ، وتخاذلهم وكذب مزاعمهم :

﴿أَلَمْ تَر إِلَى الَّذينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لإِخْوَانِهِمُ الَّذينَ كَفَرُوا منْ أَهْلِ الْكتَابِ لَئنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلاَ نُطيعُ فيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذبُونَ ۞ لَئنْ أُخْرِجُوا لاَ يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لاَ يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ﴾(٣٢)

ب- شدّة خوفهم من المؤمنين ، ورهبتهم من لقائهم ، وعدم تقديرهم لعظمة

الله : ﴿لأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ﴾ .(٣٣)

ج- جُبنهم بالاحتماء بالقرى المحصنّة ، والجدران المنيعة ، ولو دُمرت عن بكرة أبيها ، فالمهمّ في ملّتهم واعتقادهم أن يحموا أنفسهم من شَبح الموت ، ولو فَنيت البشرية والبيئة كُلّها على الرغم من العداوة بينهم :

﴿لاَ يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلاَّ فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ﴾ .(٣٤)

د- أنّهم عُرضة لسخط الله وعقابه وعذابه جزاء إجرامهم في الدنيا وظلمهم وإغوائهم :

﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ .(٣٥)

وهذه النماذج المفسدة وصفاتهم القبيحة ومَنْ سار على شاكلتها في زماننا هذا تتسبّب بلا شك في تفاقم أخطار الكوارث في البيئة لسوء استخدام المصانع ، والزراعة المفرطة ، والمعامل الكيماوية ، وهم يتعمّدون ذلك الإفساد لتبقى لهم الهيمنة متحكّمين في حقّ الناس الأساس في الغذاء والمأوى والرعاية الصّحية .(٣٦)

ونلحظ أنَّ هذا الخطاب يتسم بالحملة الشديدة على المنافقين وإخوانهم من أهل الكتاب ، ويبتدئ بالاستفهام الإنكاري التعجيبيّ : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ .

ويختتم بالتشبيه التمثيليّ حيث يشبّه المنافقين في إغرائهم اليهود على قتال المسلمين بالشيطان الذي أغرى الإنسان بالكفر ثمّ خذله وتبرأ منه .

و«هذا ضرب مَثل للمنافقين واليهود في تخاذلهم ، وعدم الوفاء في

نصرتهم ، وحذف حرف العطف ، ولم يقل وكمثل الشيطان ؛ لأنَّ حذف حرف العطف كثير ، كما تقول أنت عاقل ، أنت كريم ، أنت عالم» .(٣٧)

وفي هذا الضرب من جمال التمثيل أروعه ، ويراد بجمال التمثيل «تفسير المعاني الموهومة بالصور المشاهدة ، أو كما قال بعضهم : إبراز المتخيّل في صورة المتحقّق ، والمتوهّم في معرض المتيقن ، والغائب كأنه شاهد ، وهو يؤثر في القلوب مالا يؤثر وصف الشيء في نفسه» .(٣٨)

ولهذا الضرب من التمثيل أبلغ الأثر في النفس «فإن كان وعظاً كان أشفى للصدر ، وأدعى إلى الفكر ، وأبلغ في التنبيه والزجر ، وأجدر بأن يجلي الغياية (ما يظلّ الإنسان من فوقه) ، ويبصر الغاية ، ويبرئ العليل ، ويَشفي الغليل» .(٣٩)

عاشراً- الخطاب التحفيزيّ ومفهوم البيئة الخالدة:

وهو خطاب يُحفّز النفس على التزوّد بقيم التُّقى ، ويشحنها بطاقات العزيمة لتستعد للقاء الله في غد حقيقيّ آتٍ لا ريب فيه .

وهذا الخطاب غائب تماماً عن أذهان خبراء البيئة وأنصارها ، ولا يستشعرون أثره في إعمار الحياة الدنيا بالعمل الصّالح لأجل حياة باقية خالدة في الآخرة ، وشتان بين مسلم يُصلح نفسه ويُحاسبها ، ويخاف الله ويراقبه ، ويذكره كثيراً ، ويرى أنّه إذا أماط الأذى عن الطريق يكسبُ الحسنات ، وفاجرٍ فاسق قد ضيّع نفسه ، فلا همّ له إلاّ نيل شهواته ، ولو فسد كُلّ شيء :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ .(٤٠)

وشتان بين مَنْ يجعل دنياه مزرعة للآخرة ، ليفوز مع أصحاب الجنة ، تلك البيئة الخالدة ، ومَنْ يُعرض عن آيات ربّه ، ويجعل دنياه مطيةً للشهوة والجاه والعلوّ في الأرض :

﴿لاَ يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ .(٤١)

إنّ مفهوم الآخرة يُلزمُ المسلم بأن يعمل بالقرآن لصلاح دنياه ، وأن يتدبر آياته ، ويقدّر روعته وتأثيره في الجبال الراسيات الصمّ الشّداد لو كانت تعقل أو تميّز ، وهو أولى من الجبل بالتأثر والتدبّر :

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ .(٤٢)

وإنّ المسلم الذي يُقدّر الله حقَّ قدره ، ويعظّمه ويعبده مخلصاً ، ويعلم أنّه عالم الغيب والشهادة ، له الأسماء الحسنى ، وأنّه خالق كل شيء ، وأنّ كلَّ شيء يُسبّح بحمده ، إنّ هذا المسلم هو أرفع البشر عن الدناءة ، وأسماهم عن الإيذاء ، وأصدقهم في محبة الله ، والتفاعل مع مخلوقاته دون أن يمسّ كرامة إنسان بكلمة ، أو يؤذي حيواناً ، أو يقصفَ غصناً ، أو يفسد جماداً :

﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * هُوَ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلاَمُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ .(٤٣)

وقد تضمّن هذا الخطاب التحفيزيّ وجوهاً باهرة من الجمال البيانيّ :

- استعمل أسلوب النداء واختصّ به المؤمنين من دون الناس .
- استعمل الكناية اللطيفة ، فكنّى عن الآخرة بالغد ، وذلك لقربها ، ولبيان أنّ هذا الغد هو مستقبل الإنسان الحقيقيّ .
- استخدم التنكير للنفس والغد : ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ .

«أما تنكير النفس فاستقلال للأنفس النواظر فيما قدّمن للآخرة ، وأما تنكير الغد فلتعظيمه ، وإبهام أمره ، كأنه قيل : لغدٍ لا يُعرف كنهُه لِعظَمه» .(٤٤)

- استخدم المحسّنات البديعيّة الرائقة كالطباق بين النار والجنة ، والغيب والشهادة .
- اضطمَّ على روعة النظم في تعداد أسماء الله الحسنى ، وعذوبة جَرْسها ، وحلاوة تتابعها ، وكأنّما هي قناديل مصفوفة يشع منها النور والضياء .
- واءم مواءمة عجيبة بين استهلال السورة المفتتحة بالتسبيح ونهايتها المختتمة بالتسبيح .

وبعد ، فما أجدر خبراء البيئة وأنصارها بأن يستلهموا من هذه المفاهيم القرآنيّة الأصيلة خُططهم في الإصلاح ، وأساليبهم في الإعمار ، ولا يُنبئك مثلُ خبير .

ثمار المدارسة:

يمكن أن نجمل النتائج التي توصّلت إليها المدارسة في النقاط التالية :

١ . أظهرت أن الخطاب القرآني المتعلق بالبيئة فياضٌ بألوان الجمال البياني المعبرّ عن عظمة الله في عالميّ الغيب والشهادة ، وعن علاقة الإنسان بالبيئة في كتاب الله المسطور ، وكونه المنظور .

٢ . أثبتت أن من جمالية الخطاب القرآني المتعلّق بالبيئة تنوّعَ أنماطه وتعدّد أساليبه التعبيرية من كناية لطيفة ، واستعارة ظريفة ، ومقابلة رائقة ، وتمثيل بارع ، وعذوبة جَرْس .

٣ . أثبتت أن سورة الحشر تشتمل على مفاهيم جديدة أصيلة للبيئة تفترق عن المفاهيم القاصرة التي تواطأ عليها خبراءُ البيئةِ المعاصرون .

٤ . بيَّنت احتفاء الخطاب القرآنّي بالمكان وعنايته الفائقة بالمحافظة على سلامته وجماله ، فهو مستقر للإنسان ، ومنبت للزرع والثمر والزهر ، ومحضن للمؤاخاة والتنافس والتعاون .

٥ . بيّنت أن من ألوان جمالية الخطاب القرآني روعةَ استهلال سورة الحشر وافتتاحها بالتسبيح واتفاق هذا الاستهلال مع نهايتها واختتامها بالتسبيح أيضاً ، ففي الافتتاح :

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ .

وفي الختام : ﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ .

وهذا مالا نظير له في أساليب البلغاء الكاتبين ، وصدق الله العظيم :

﴿وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ .

الهوامش:

(١) النمل ، آية ٨٨ .

(٢) الملك ، آية ٣ ، ٤ .

(٣) الأعراف ، آية ٥٦ .

(٤) انظر : البيئة والإنسان عبر العصور ، إيان ج .سيمونز ، ترجمة السيد محمد عثمان ، ص ١٥ وما بعدها .

(٥) مجلة العربي ، ع ٤٧٤ ، مايو ١٩٩٨م : «بيئة القرن القادم» د . عادل عوض ، ص١٢٠- ١٢٥ .

(٦) أسباب النـزول ، الواحدي (٤٦٨هـ) ، ص ٢٧٨ .

(٧) رواه البخاريّ في باب حديث بني النضير ، حديث رقم ٣٨٠٤ (صحيح البخاريّ ، محمد بن إسماعيل البخاري (٢٥٦هـ) تحقيق : د . مصطفى البغا) .

(٨) انظر : المفاهيم والقيم الإسلاميّة اللازمة للتنشئة البيئية ، د . عبد الغني قاسم غالب ، ص ١٣-١٤

(٩) الحشر ، آية ١ .

(١٠) الطبيعة في القرآن الكريم ، د . كاصد ياسر الزيدي ، ص ١٤٨ .

(١١) الحشر ، آية١ .

(١٢) الإسراء ، آية ٤٤ .

(١٣) انظر : منهج السياق في فهم النص ، د . عبد الرحمن بودرع ، ص ٧٨ .

(١٤) الرعد ، آية ١١ .

(١٥) انظر : صفوة التفاسير ، محمد علي الصابوني ، م٣ ، ص ٣٤٩ .

(١٦) الحشر آية ٢ ، ٣ .

(١٧) انظر : الفكر الإسلامي وطرائق النقد الأدبيّ ، د . محمد علي أبو حمدة ، ص٥٠ .

(٢٠) البقرة ، آية ١١-١٢ .

(٢١) الحشر ، ٤ .

(٢٢) الحشر ، ٥ .

(٢٣) أضواء البيان ، محمد الأمين الشنقيطي ، تحقيق : مكتب البحوث والدراسات ، ص٢٩ .

(٢٤) تاريخ آداب العرب ، مصطفى صادق الرافعي ، ج ٢ ، ص ٢٢٣ .

(٢٥) انظر : مختصر تفسير ابن كثير ، تحقيق : محمد علي الصابوني ، م ٣ ، ص ٤٧١ .

(٢٦) انظر : التحدي النووي في الشرق الأوسط ، اللّواء يوسف أحمد كعوش ، ص ٣٩ وما بعدها .

(٢٧) مختصر تفسير ابن كثير م٣ ، ص ٤٧٢ .

(٢٨) الحشر ، آية ٦-٨ .

(٢٩) انظر : جواهر البلاغة ، السيد أحمد الهاشميّ ، ص ٢٩٢ .

(٣٠) الحشر ، آية ٩ ، ١٠ .

(٣١) انظر : جرس الألفاظ ودلالتها ، د . ماهر مهدي هلال ، ص ١٦٨ .

(٣٢) الحشر ، آية ١١ ، ١٢ .

(٣٣) الحشر ، ١٣ .

(٣٤) الحشر، ١٤ .

(٣٥) الحشر ، ١٥-١٧ .

(٣٦) انظر : مجلة علوم وتكنولوجيا ، س ٥ ، ع ٥. ، يناير ١٩٩٨م «تفاقم أخطار الكوارث بسبب البشر» ، محمد مرسلي ، ص ٢٩-٣٣ .

(٣٧) تفسير القرطبي ، ج١٨ ، ص ٣٧ .

(٣٨) تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي ، أنيس المقدسي ، ص ٥٨ .

(٣٩) أسرار البلاغة ، عبد القاهر الجرجانيّ ، تحقيق السيد محمد رشيد رضا ، ص ٩٥ .

(٤٠) الحشر ، آية ١٨ ، ١٩ .

(٤١) الحشر ، آية ٢٠ .

(٤٢) الحشر ، آية ٢١ .

(٤٣) الحشر ، آية ٢٢-٢٤ .

(٤٤) إعراب القرآن الكريم وبيانه ، محيي الدين الدرويش ، ج ٧ ، ص ٤٨٨ .

المصادر والمراجع:

١- القرآن الكريم .
٢- أسباب النـزول ، الواحدي (٤٦٨هـ) ، دار الفكر- بيروت ، (د .ت) .
٣- أسرار البلاغة ، عبد القاهر الجرجانيّ ، تحقيق : السيد محمد رشيد رضا ، دار الفكر ، (د .ت) .
٤- أضواء البيان ، محمد الأمين الشنقيطيّ ، تحقيق : مكتب البحوث والدراسات ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م .
٥- إعراب القرآن الكريم وبيانه ، محيي الدين الدرويش ، ط ٦ ، دار ابن كثير ، ودار اليمامة ، دمشق- بيروت ، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م .
٦- البيئة والإنسان عبر العصور ، إيان ج .سيمونز ، ترجمة السيد محمد عثمان ، عالم المعرفة (٢٢٢) المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت -١٤١٨هـ /١٩٩٧م .
٧- تاريخ آداب العرب ، مصطفى صادق الرافعي ، ط٢ ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م .
٨- التحدي النووي في الشرق الأوسط ، اللّواء يوسف أحمد كعوش ، ط ١ ، ١٩٧٨م .
٩- تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي ، أنيس المقدسي ، ط ٥ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٧٤م .
١٠- تفسير القرطبي ، القرطبي ، دار الشعب ـ القاهرة ، (د .ت) .
١١- جرس الألفاظ ودلالتها ، د . ماهر مهدي هلال ، دار الرشيد للنشر ، العراق ، ١٩٨٠م .
١٢- جواهر البلاغة ، السيد أحمد الهاشميّ ، ط ٦ ، دار الكتب العلمية ، (د .ت) .
١٣- صحيح البخاريّ ، محمد بن إسماعيل البخاري (٢٥٦هـ) تحقيق : د .

مصطفى البغا ، ط ٣ ، دار ابن كثير واليمامة ، بيروت ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .
١٤- صفوة التفاسير ، محمد علي الصابوني ، دار الفكر ، بيروت - لبنان ، (د .ت) .
١٥- الطبيعة في القرآن الكريم ، د . كاصد ياسر الزيدي ، دار الرشيد للنشر ، العراق ، ١٩٨٠م .
١٦- الفكر الإسلامي وطرائق النقد الأدبيّ ، د . محمد علي أبو حمدة ، ط٢ ، دار الفرقان ، عمان ، ١٤٠٣هـ ، ١٩٨٣م .
١٧- كمال الأمة في صلاح عقيدتها ، أبو بكر الجزائري ، دار الحرمين - القاهرة ١٤١٣هـ .
١٨- لغة القرآن الكريم ، د . عبد الجليل عبد الرحيم ، ط١ ، مكتبة الرسالة الحديثة ، عمّان ، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م .
١٩- مختصر تفسير ابن كثير ، تحقيق محمد علي الصابوني ، دار الفكر - بيروت ، د .ت .
٢٠- المفاهيم والقيم الإسلاميّة اللازمة للتنشئة البيئية ، د . عبد الغني قاسم غالب ، ط ١ دار البشير ، عمان ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م .
٢١- منهج السياق في فهم النص ، د . عبد الرحمن بودرع ، سلسلة كتاب الأمة ، العدد ١١١ ، السنة ٢٦ ، وزارة الأوقاف ، قطر ، المحرم ١٤٢٧هـ .
٢٢- مجلة العربي ، ع ٤٧٤ ، مايو ١٩٩٨م : «بيئة القرن القادم» د . عادل عوض .
٢٣- مجلة علوم وتكنولوجيا ، س ٥ ، ع .٥ ، يناير ١٩٩٨م «تفاقم أخطار الكوارث بسبب البشر» ، محمد مرسلي .

الرِّحلة

إلى الفضَاءِ في القُرآنِ الكَريمِ

- خصائص الفضاء
- روّاد الفضاء الأوائل
- محاولات غزو الفضاء
- التمكين الإلهيّ لإنسان العصر بارتياد الفضاء

الرِّحلة إلى الفضَاءِ في القُرآنِ الكَريمِ

يُسرّحُ المتأمّل نظَرَهُ في صفحات هذا الكون ؛ فيدهشه ما يرى من مناظر باهرة ، ومظاهر ضخمة ، ويأسر لبَّهُ ما يجد من دقة متناهية ، وتناسق عجيب ، وإحكام متين ، ويستحوذ على شعوره ما يُحسّ من جمال أخّاذ ، وروعةٍ ساحرة ، ونشوة طًاغية .

ولو أراد أن يفتّش عن أدنى خلل فيه ، أو عيب يعتريه لما استطاع ، ولو أمعن نظره مرّاتٍ ومرّات ، ولو استخدم أحدث الأجهزة والتقنيات ، بل سيجد ما يبهره من التنظيم والإحكام والإتقان :

﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِأً وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ . (الملك ٣- ٤)

إنّ هذا الكون الرّحب ليدعو الإنسان إلى التفكّر في خلقه وحركته وظواهره ، ودراسة نواميسه وسننه ، والتجوال في آفاقه وثناياه وفضائه ، ليعلم علم اليقين قدرة الله ودلائل وحدانيته بخلق هذا الملكوت ، وأنّه قد أحاط بكل شيءٍ فيه ، وأحصى كُلّ شيءٍ عدداً :

- ﴿قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ . (يونس ١٠١)
- ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ﴾(١٨٥) الأعراف .
- ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ * وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ . (ق ٦- ٨)

والمتدبّر لآيات القرآن يجد أنّ أكثر من ثلثيها يتناول الشواهد الكونية الدالة على عظمة الخالق وقدرته وإرادته ، وما تمثلّ هذه الشواهد والمشاهد من حقائق وسنن ونواميس في مجالات العلم المختلفة .(١)

ومن يتدبّر أكثر فأكثر ، ويُنعم نظره في الآيات الكونيّة يجد أنّ الله سبحانه وتعالى قد أوجب على المسلم أن يتفكّر ويتأمل ، ثمّ يسير في الأرض ، ويبحث وينقّب ، ثُمّ يتخذ كُلّ وسيلة لاستكشاف آفاق الكون المسخّر له ، والمُذلّل للإعمار والاستخلاف ، وليس أدلّ على ذلك من كشف القرآن الكريم عن خصائص الفضاء ؛ لينطلق الإنسان مُحلّقاً في أجوائه ، بعد أن يُحكمَ وسائله الدقيقة ، ويُعدّ نفسه بالمران والمهارة ، ويفقه القوانين الناظمة لهذا الكون .

أولاً- خصائص الفضاء:

١. السّعة المُذهلة:

إنّ الفضاء الكونيّ فسيح جداً ، ولكي نفهم سعته نتصوّر طائرة خيالية تسير بسرعة (١٨٦,٠٠٠) ميل في الثانية ، وأنّ هذه الطائرة الخيالية تطوف بنا حول الكون الموجود الآن ، فإنَّ رحلتها سوف تستغرق (١,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠) سنة!

ومعلوم أنّ الكون ليس بمتجمّد ، وإنّما يتسع كُلّ لحظة حتى إنّه بعد (١,٣٠٠,٠٠٠,٠٠٠) سنة تصير هذه المسافات الكونية ضعفين! وبذلك لن تستطيع هذه الطائرة الخيالية أن تكمل رحلتها ، بل ستظل تواصل رحلتها في نطاق التوسع الدّائم للكون! (٢)

قال تعالى : ﴿وَالسَّمَاء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ . (الذاريات ٤٧)

٢. تزيينه بالكواكب والنجوم:

وفي هذا الفضاء الفسيح بلايين البلايين من الكواكب والنّجوم الدائرة في أفلاكها بسرعة هائلة ، دون أن يصطدم أحدها بالآخر ، والتي تبعد ملايين السنين الضوئيّة عن الأرض .

لقد اكتشف الفلكيون بوساطة مرصد حديث أنّ هنالك نجماً يبعد عنّا نحو (٢٠) مليون سنة ضوئية ، ويعني ذلك : ٢٠مليون × ٣٦٥ يوماً × ٢٤ ساعة × ٦٠ دقيقة × ٦٠ ثانية × سرعة الضوء (١٨٦,٠٠٠) ميل في الثانية= ١٢ ×١٠ ١٣ ميلاً تقريباً! (٣)

وقد جعل الخالق سبحانه تلك الكواكب والنجوم مصابيحَ منيرة تزيّن السّماء :

- ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ . (فصلت ١٢)
- ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾ . (الصافات ٦)

وقد صرّح القرآن بأسماء عدد من الكواكب والنّجوم :

أ- الشّمس:

وردت في أكثر من ثلاثين موضعا .(٤)

﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ . (يــس ٣٨)

ب- القمر:

ورد في أكثر من عشرين موضعاً .(٥)

﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ (يــس ٣٩)

ج- الأرض:

وردت في أكثر من خمس وعشرين مرّة .(٦)

﴿وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ (البقرة ٣٦)

د- الشّعرى:

ورد مرّة واحدة .

﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى﴾ . (النجم ٤٩)

٣. الضغط الجويّ: (Atmospheric Pressure)

بيّن القرآن أنَّ الإنسان الصّاعد إلى الفضاء سيشعر بالضيق والاختناق ، وهو مثلُ مَنْ أراد اللهُ أنْ يضلّه ويشقيه ، وجاء العلم بعد قرون ليكتشف هذه الظاهرة ، ويؤكد أنّه كلّما ارتفع الإنسان في الجوّ قلّ الضغط الجويّ ، وتناقص الأوكسجين ، فيحسّ باختناق صدره ، وضيق تنفسّه :

﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء﴾ . (الأنعام ١٢٥)

٤. الشّهب والنيازك:

وهي أجسام سماويّة لامعة تسير بسرعة ، وتترك وراءها ذيلاً منيراً ، ثمَّ لا تلبث أن تحترق في الفضاء ، فإذا سقطت على الأرض سمّيت النيازك . والعلماء المعاصرون حائرون بشأنها ، ولم يدركوا وظائفها . أمّا القرآن الكريم فقرّر أنَّ من وظائفها رجم الشياطين وحرقهم عندما يحاولون التّسمع إلى الملأ الأعلى :

- ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ . (الجن ٩)

- ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ۞ لاَ يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۞ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۞ إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ . (الصافات ٧- ١٠)

٥. السُّحب:

وهي مصدر المطر والرعد والبرق :

- ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ . (الرعد ١٢)

- ﴿حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاء﴾ . (الأعراف ٥٧)
- ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ﴾ . (البقرة ١٦٤)

٦. المطر والبَرَد:

وهو حياة الأرض ، ومفجّر ثرواتها وخيراتها :

- ﴿وَاللّهُ أَنزَلَ مِنَ الْسَّمَاء مَاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ . (النحل ٦٥)
- ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ . (لقمان ١٠)

٧. الريّاح:

ولها منافع عظيمة في إثارة الغيوم ، وتحريك السفن ، وتلقيح الأشجار :

- ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاء﴾ . (الروم ٤٨)
- ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ . (يونس ٢٢)
- ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ . (الحجر ٢٢)

٨. البرق والرّعد:

وهما آيتان فيهما الخوف والطمع ، والنفع والعذاب :

- ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ . (الروم ٢٤)
- ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاء فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ واللّهُ مُحِيطٌ بِالْكافِرِينَ﴾ . (البقرة ١٩)

٩. قوة التّسارع والجذب:

إذا سقط جسم من الجوّ فإنّه يكتسب تسارعاً هائلاً ، وتتلقّفه الجاذبيّة الأرضيّة ، فيستقر على سطحها ، هذا ما قرّره القرآن قبل أن يُخلق (نيوتن) بقرون كثيرة! قرّر ذلك في معرض حديثه عن الهلاك الذي يتربّص بالمشرك بالله كمن يقع من السماء فتمزّقه الطير ، أو تعصف به الريح في المهاوي :

﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاء فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ . (الحج ٣١)

١٠. الحراسة الشديدة:

وهذا الفضاء الواسع العجيب لم يخلق عبثاً ، ولم يترك هملاً ، بل هو محروس بالملائكة الأقوياء ، ومحروس بالقذائف الجويّة المرعبة ، وهي الشهب :

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاء فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ . (الجن ٨)

ثانياً - روّاد الفضاء الأوائل:

يظن بعض النّاس- بمن فيهم علماء الفضاء في الغرب - أنّ إنسان هذا العصر هو أول من ارتاد الفضاء ، ولمس سطح القمر ، وهو ظنّ يجانب الصواب ، وزعم باطل يجافي الحقيقة العلميّة ، فلقد سُبق الإنسان المعاصر أيّما سبق في هذا المجال منذ ملايين السنين ، وهو بالنسبة للرواد الأوائل متخلّف جداً عن ركب الارتياد!

ومن يتدّبر كتاب الله تعالى يجد أن الله جلَّ جلاله قد مكّن لعدد من مخلوقاته من ارتياد الفضاء بل من تجاوزه إلى السموات السّبع ، ومخاطبة من فيها ، والأصناف هي :

١. الملائكة:

وهم عباد مكرّمون ، مخلوقون من نور ، لا يحصي عددهم إلاّ الله ، ولهم

أعمال كثيرة ، منها ما يقتضي الهبوط من السماء والصعود إليها بسرعة خارقة ، ولا نعلم مقدارها ، ومن هذه الأعمال :

أ- إمداد المؤمنين في القتال:

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ . (الأنفال ٩)

ب- الوحي إلى الرّسل:

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاء﴾ . (الشورى ٥١)

ج- حمل التابوت بين السّماء والأرض، ووضعه بين يدي طالوت:

﴿وَقَالَ لَهُمْ نِبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلآئِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (البقرة ٢٤٨)

د- التنزّل ليلة القدر من شهر رمضان المبارك:

﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ * سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ (القدر٤ ، ٥)

وقد ذكر الحديث الشريف طائفةً من الملائكة الطوّافين في الطرق الذين يلتمسون أهل الذكر ، ثمّ يصعدون إلى السماء حيث يسألهم ربُّهم سبحانه عن أحوال الذاكرين . (٧)

هـ- هبوط الملكين هاروت وماروت إلى الأرض للفتنة والابتلاء:

﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ﴾ . (البقرة ١٠٢)

٢. البشر (وهم من الأنبياء والرسل):

أ- آدم وزوجه:

كان آدم وزوجه ينعمان في الجنّة بأطايب الطعام، ولذائذ الشّراب، فأغواهما إبليس اللّعين، فأكلا من الشجرة المحرّمة، فأمرهم الله بالهبوط إلى الأرض، فكانت هذه هي أول رحلة بشريّة فضائيّة تتجّه من السّماء إلى الأرض:

﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ * فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾. (البقرة ٣٥- ٣٦)

ب- عيسى عليه الصلاة السلام:

لقد تعرّض هذا النّبي الكريم لمحاولة اغتيال نكراء، فألقى الله شبهه على أحد أعدائه ونجّاه، ورفعه إلى السّماء، وظنّ النّصارى أنّه قُتل وصُلب، ولم يعلموا أنّه في حفظ المليك المقتدر:

﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا * بَل رَّفَعَهُ اللّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا.﴾ (النساء ١٥٧- ١٥٨)

وأخبر الله عزّ وجل عبده عيسى بهذه الرحلة السماويّة، وبشّره بالنجاة من مكر اليهود وغدرهم:

﴿إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾. (آل عمران ٥٥)

ج- سليمان عليه الصلاة السلام:

آتى الله نبيّه سليمان نعماً كثيرة ، منها تسخير الريح التي تحمله وجنده في الفضاء بلين وسرعة عالية ، وتقطع مسيرة شهر في الغدّو والرّواح بساعات معدودات ، وتنتقل بهم من مكان إلى مكان حيث أراد :

- ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاء حَيْثُ أَصَابَ﴾ . (ص ٣٦)
- ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ . (سبأ ١٢)
- ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾ . (الأنبياء ٨١) .

د- مُحمّد ﷺ أعظم الرّواد:

أكرم الله جلّ جلالُه محمّداً ﷺ بأعظم رحلة فضائيّة في الوجود عاشها بروحه وجسده يقظةً لا مناماً ، تلك هي رحلة الإسراء والمعراج التي حملت الخير والهناء لكل العالمين . وظهرت معالم هذه وخطوطها بارزة مجملة في الكتاب مفصّله في السّنة ،[٨] ومن تلك المعالم :

الرقم	معالم الرحلة	بيان وتوضيح
١-	زمن الرحلة	وقت اللّيل (٢٧ رجب في السنة العاشرة من البعثة)
٢-	مخطط الرحلة	رحلة الإسراء :من المسجد الحرام في مكة إلى المسجد الأقصى في القدس رحلة المعراج :من القدس إلى السموات العُلى فسدرة المنتهى
٣-	وسيلة الرحلة	البُراق في رحلة الإسراء . وأمّا المعراج فلا وسيلة إلاّ قدرة الله سبحانه
٤-	المرافق في الرحلة	جبريل عليه السلام
٥-	هدف الرحلة	إكرام النبي ﷺ بالآيات ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾
٦-	مشاهد من الرحلة	رؤية الأنبياء والرسل والسّلام عليهم ، ورؤية الملائكة ،

		ورؤية السموات وما فيها من عجائب وغرائب ، ورؤية الجنة والنار وسدرة المنتهى
٧-	مدة الرحلة	ليلة واحدة
٨-	نتائج الرحلة	سرور النبي ﷺ والتسرية عنه ، وتثبيت فؤاده على الحقّ ، وتبشير أمته بالجنة ، وتخويفهم من النّار ، والعودة بهدية الصّلاة ، وما أعظمها من هدية ؛ فهي عماد الدين ، وصلة بين العبد وربّه ، وهُويّة المسلم .

قال تعالى : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ . (الإسراء ١)

وقال تعالى : ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى * وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى * عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى * لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ . (النجم ١١- ١٨)

٣. الجنّ:

وقد مثلّهم إبليس اللّعين :

كان إبليس مع الملائكة لمّا أمرهم الله بالسّجود فاستكبر ، وادّعى أنّه أفضل وأشرف من آدم ؛ لأنّه مخلوقٌ من النّار . ولمّا دخل آدم وزوجه الجنة أغواهما بالأكل من الشجرة ، فأكلا منها ، فأخرجهم الله منها جميعهم آدم وزوجه وإبليس ، فهبط إبليس إلى الأرض :

- ﴿قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ . (البقرة ٣٨)
- ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ

وَخَلَقْتَهُ مِن طِين * قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ . (الأعراف ١٢ ، ١٣)

٤. الحيوان:

ويُمثّله الطير في ريادة الفضاء :

والطير أمّة من الأمم المبثوثة في الكون ، يسبّح لله ، ويُحلّق في الفضاء القريب ، ويبسط أجنحته ، ويقبضها بإلهام من الله ؛ وفي طيرانه وتحليقه عبرة لمن يتأمّله من الناس :

- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ . (الملك ١٩)
- ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاء مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ . (النحل ٧٩)

وقد لفت القرآن أنظار الناس إلى تحليق الطير في الفضاء ، وكشف عن سلوكه في عدة صور :

أ- هداية الغراب لقاتل أخيه:

﴿فَبَعَثَ اللّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ . (المائدة ٣١)

ب- رحلة الهدهد عبر الفضاء إلى ملكة سبأ:

﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ . (النمل ٢٢)

ج- حرب الطير الفضائية لأصحاب الفيل:

﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ . (الفيل ٣- ٥)

ثالثاً - محاولات غزو الفضاء:

في القرآن دعوة صريحة إلى الجن والإنس بمحاولة الخروج إلى الفضاء ، والتجوّل فيه ، واستكشاف ما فيه ، وفيها تحدٍ وتعجيز لهم بأن يخرجوا من أقطار السموات والأرض إذا استطاعوا أن يسبحوا في فضاء السماء الدنيا ، وهو أمر هيّن (أي التجوّل في الفضاء) ، وفيها تقرير لحدود محاولات الثقلين عند أقطار السموات والأرض إلاّ بقدرة الله وإرادته ، وإلاّ سيلقى كُل من يحاول الاختراق الهلاك بشواظ النّار والنّحاس :

﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ . (الرحمن ٣٣)

وقد ذكر القرآن محاولات تطلّعَ فيها الجن والإنس إلى الصعود إلى الفضاء وركوب أثيره لتحقيق أهدافٍ معينة :

١- محاولة الجنّ بلوغ السّماء للاستماع إلى كلام أهلها ، ونقله إلى الكُهّان ، وإعلانهم عن وجود الحرس الشديد من الملائكة والشّهب بعد بعثة محمّد عليه السلام :

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ . (الجن ٨- ٩)

٢- طلب فرعون من وزيره هامانَ أن يبني له قصراً عالياً ليصل إلى طُرق السموات ، ويثبت لموسى وقومه عدم وجود إله فيها :

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ

وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾ (غافر ٣٦- ٣٧)

٣- طلب قريش من مُحمّد عليه السلام أن يصعد إلى السّماء بسُلّمٍ ، ويعود ومعه كتاب من الله ينشره لهم فيقرأونه :

﴿أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً﴾ . (الإسراء ٩٣)

هذا ما جاء في القرآن عن محاولات اختراق الفضاء ، أمّا محاولات البشر منذ قديم الزمان فقد غُلّفت بالأساطير والخرافات فلم تُعرف ، فلما جاء الإسلام قدّم علماؤه إبّان عصوره الزاهرة أروع الإنجازات العلميّة ، ومنها الإنجاز الفلكيّ الذي كان عميقاً متقدماً إلى حدّ أبعد من نظيره في أوروبا .(٩)

ففي حين كان إنجاز العالم يُوزن بالذهب عند المسلمين ، كان مجرد التفكير في دوران الأرض جريمةً عقابها الإعدام في أوروبا!

وقد فتح عبّاس بن فرناس الباب الفضائيّ على مصراعيه حين مثّل في بيته السماء بنجومها وغيومها وبروقها ورعودها ، وكسا نفسه بالريش ، ومدّ له جناحين ، وقذف نفسه من مئذنة «قرطبة» فطار في الجوّ ، ولكنه سقط وأصيب بجروح ؛ لأنّه أغفل الذنب!

وكان عبّاس مخترعاً أندلسياً وشاعراً وفيلسوفاً ، وهو أول من استنبط صناعة الزجاج من الحجارة في الأندلس ، وصنع الميقاتة لمعرفة الأوقات .(١٠)

ثمّ توالت بعد ذلك محاولات الطيران ، وتلقّفت أوروبا علوم العرب والمسلمين حتى استطاعت أن تصنع الطّائرة بطريقة متطوّرة في القرن العشرين ، وبخاصة بعد الحرب العالميّة الثانية .

رابعاً - التمكين الإلهيّ لإنسان هذا العصر بارتياد الفضاء:

وعد الله سبحانه وتعالى أن يُظهر للنّاس جميعاً آثار قدرته ودلائل وحدانيته في شتى المجالات ، ويُمكنّ لهم من استجلاء الأسرار في كثير من نواميس الكون حتى يروا أثرها رأي العين ؛ ليعلموا أنّ هذا القرآن حقٌّ مُنزّل من عند

الله ، وقد مكّن لإنسان هذا العصر أن يخترع ويكتشف ، ويتقدّم تقدّماً هائلاً في الطبّ والتشريح ، وفي علم الفلك ، فيحلّق في الفضاء ، ويرسل أقماره الصناعيّة ، ومركباته الفضائيّة : ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ﴾ . (فصلت ٥٣)

ومن صور هذا التمكين :

١- اختراع وسائل النقل الجويّ المتطورة كالطائرة بأنواعها المختلفة .

٢- اختراع أجهزة الارتياد الفضائيّ من مناظير وتلسكوبات ، ومراصد ، وأقمار صناعيّة ، ومركبات فضائيّة ، وصواريخ حاملة لها .

٣- اختراع أجهزة الاتصالات المتقدمة كالهاتف ، والبرّاق (الفاكس) والحاسوب ، وشبكة المعلومات (الإنترنت) وغيرها .

ونجد في القرآن الكريم إشارة واضحة إلى هذا التقدم الذي شهدته البشريّة : ﴿وَالخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ . (النحل ٨)

٤- التحليق في الفضاء، والوصول إلى القمر:

كانت أول محاولة للرّوس عام ١٩٥٧م حيث وضع القمر الصناعيّ سبوتنك ، ١- في الفضاء ، ثم تلاه سبوتنك ، ٢- الذي حمل الكلبة «لايكا» .

ثمّ حلّق «جاجارين» حول الأرض مدة ساعة و ٤٨ دقيقة عام ١٩٦١م ، وعاد معلناً أنهّ وجد الله ، ثمّ أُجبر على إنكار ذلك ، فقال : بحثتُ عن الله فلم أجده!

أمّا الولايات المتحدة فنجحت في الوصول إلى القمر في السادس عشر من يوليو عام ١٩٦٩م ؛ إذ هبط «نيل آرمسترونج» على سطحه مع صاحبه «ألدرين» في مركبة (أبوللو-١١) في ٢٠ يوليو ١٩٦٩ .[١١]

أمّا «ألدرين فتعرّض بعد عودته من الفضاء لنوبات يأس وغمّ ، وتحوّل إلى

هيكل مُهتز ، وأعصاب مضطربة ، فأدمن الخمر ، ورحلت عائلته عنه ، وعاش في أسى يغمر كلّ ذرة في كيانه!

وأمّا «أرمسترنج» فقد أسلم وجهه لله ربّ العالمين بعد سنين من عودته ، ومن بواعث إيمانه أنّه حمل سورة الفاتحة معه إلى القمر بخط زميله «د . فاروق الباز» ، فكانت أول ما نزل على سطح القمر![١٢]

وأمّا المسلمون فتخلّفوا عن هذا الركب الفضائيّ الحضاريّ لضعف إيمانهم ، وفساد سلوكهم ، وتفشّي الجهل بأمور دينهم ودنياهم ، وصراعهم على المناصب ، بالإضافة إلى محاربة المستعمرين لقوتّهم ، والاستيلاء على ثرواتهم ، وبعث أسباب الخلاف والفرقة بين صفوفهم .

ولكي تحقق لهم أسباب التقدمّ العلميّ فلا بدّ لهم من العودة إلى الكتاب والسنة ، والجمع المنهجيّ بين الأصالة والمعاصرة من خلال : [١٣]

أ – توفير الخبرات الفنيّة والأيدي العاملة المدّربة .

ب – توفير الأموال والمواد الخام .

ج – توفير المصانع والأسواق المستهلكة .

د– الإفادة من التقنية المعاصرة في ارتياد الفضاء .

هـ تشجيع البحث العلميّ ، وتوفير المختبرات اللازمة له .

و– وجود النظام العادل الذي يشجع العمل ، ويمنع الظلم .

وينبغي أن يكون كلّ ذلك تحت راية القرآن الداعي إلى الاجتهاد والإبداع والتعاون :

﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ . (المائدة ٢)

وبالرغم من تخلّف العرب والمسلمين إلاّ أنّهم أسهموا في التقدّم العلميّ المعاصر من خلال عدد من العلماء أمثال :

– العلامة عناية الله المشرقي ، وهو أعظم علماء الهند في الطبيعة والرياضيات ، وأول مَنْ عرض فكرة القنبلة الذرية .

– د . فاروق الباز الذي يعمل في وكالة الفضاء الأمريكيّة (ناسا) ، وأشرف

على أبحاث أبوللو-١١ .

- الأمير سلطان بن سلمان آل سعود أول رائد فضاء عربيّ مع سبعة رواد من فرنسا والولايات المتحدة سنة ١٩٨٥م (مكوك الفضاء ديسكفري رحلة ٥١) .

- رائد الفضاء السّوريّ محمد فارس سنة ١٩٨٧م .

وغير هؤلاء عشرات وعشرات .

ولا ينبغي أن يُلابس قلوب المسلمين الوهن أو الحزن لما آلت إليه أحوالهم ، فستكون لهم الريادة والسيادة بإذن الله ، إذا ما عمّر قلوبهم الإيمانُ الصادق ، وظهر على جوارحهم عملاً صالحاً ، وجدّاً واجتهاداً ، واختراعاً وإبداعاً : ﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ . (آل عمران ١٣٩)

وهكذا يتضح لكلّ ذي بصيرة أنّ القرآن الكريم قد لفت أنظار النّاس إلى الفضاء ، وبهرهم بحقائقه الدامغة عن خصائصه ونواميسه ، وبشّرهم بمزيد من التقدم والتقنية في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبيّن لهم أنّه الحقّ .

وقد ظهر الحق وبان ، وأسلم عدد من العلماء في الشرق والغرب(١٤) على الرّغم من تقصير الدّعاة ، ومرارة واقع المسلمين المعاصر ، ﴿وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ .

الهوامش:

١ . انظر : د . عماد الدين خليل ، مدخل إلى موقف القرآن الكريم من العلم ، ط١ ، مؤسسة الرسالة – بيروت ، ١٤٠٣هـ١٩٨٣م . ص ١٩٩ وما بعدها .

٢ . انظر : وحيد الدين خان ، الإسلام يتحدّى ، تعريب : ظفر الإسلام خان ، تحقيق : د . عبد الصبور شاهين ، ط٣ ، دار البحوث العلميّة ١٣٩٩هـ١٩٧٩م .ص ٥٦ .

٣ . انظر : رائف نجم ، الإعجاز العلميّ في القرآن ، ط٢ ، المكتبة الإسلاميّة-عمان ، ١٤٠٣هـ ، ص ١٢-١٣ .

٤ . انظر : محمد فؤاد عبد الباقي ، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، ط٢ ، دار الفكر ، ١٤٠١هـ١٩٨١ .

٥ . ٦ . : مادة (شمس) ٣٨٧ ، مادة (قمر)٥٥٣ ، مادة (أرض) ص ٢٦-٣٣ .

٧ . انظر الحديث في البخاريّ ، الدعوات ، باب فضل ذكر الله . ومسلم ، الدعوات ،باب فضل الذكر .

٨ . انظر حديث الإسراء والمعراج في كتب السنّة الصحيحة : البخاريّ ، ومسلم ، وصحيح السّيرة لإبراهيم العلي وغيرها .

٩ . انظر : توبي أ . هاف ، فجر العلم الحديث ، ترجمة د . أحمد محمود صبحي ، عالم المعرفة ، ٢١٩ ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- الكويت شوال ١٤١٧هـ١٩٩٧م . ص ٧٨- ٨٦ .

١٠ . الموسوعة العربية الميسرة ، بإشراف محمد شفيق غربال ، دار إحياء التراث العربيّ ، ج٢ ، ص ١١٧٦ .

١١ . انظر : د . أحمد زكي ، في سبيل موسوعة علميّة ، ط٥ ، دار الشروق ، بيروت-القاهرة ، ١٤١٢هـ١٩٩٢م . ص ٥٥٥- ٥٧١ .

١٢ . انظر : شوقي أبو خليل ، الإنسان بين العلم والدين ، ط٣ ، ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م . دار الفكر-دمشق .ص١٢٢ ، ١٧٨ .

١٣ . انظر : عبد المجيد الزنداني ورفاقه ، الإيمان ، ط١ ، دار المجتمع-جدة ، ١٤٠٩هـ١٩٨٩م . ص ١٥٢ .

١٤ . انظر :صفاء الخلوصي ، لماذا أسلمنا/ وعرفات العشي ، رجال ونساء أسلموا ./ د . عدنان النحويّ ، الصّحوة الإسلامية ، إلى أين؟ ص١٧-٥١ .

القيمُ الدَّعويّةُ

في قِصّةِ الهُدهُدِ وسُليمان

- احتفاء القرآن بالقصة
- شخصية سليمان عليه السّلام
- ملكة سبأ وعرشها
- الهدهد وعمله
- عفريت من الجنّ يعرض قدرته
- الذي عنده علمٌ من الكتاب
- القيم الدعوية في القصة

القيمُ الدَّعويّةُ
في قِصّةِ الهُدهُدِ وسُليمان

احتفى القرآنُ الكريم احتفاءً بالغاً بالقصّةِ في مواضع كثيرة تزيد على الثّلث، وذلك لما في القصة من قدرة فائقة على إثارة الوجدان، وتشويقه وإمتاعه، واستنهاض العقل، وشحنه وإقناعه، بقصدِ تحصيل العبرة والعظة، ثم الانطلاق إلى العمل الصّالح ابتغاءَ مرضاة الله:

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ . (يوسف آية ١١١)

والقصة القرآنية تنبضُ بالحيوية والصّدق والجمال التعبيريّ المُعجز، وتُدخل المتلقّي عالماً يموج بالمشاهد الحية والصور الحركية، والحوار المُعبّر المقنع، وتفتح الآفاق أمام عقله كي يبدأ - بعد سماعها أو قراءتها - رحلةً ممتدة في التفكير والبحث والتعمّق، فهي قمة شامخة خالدة ذات جمال أخّاذ، ومذاق خاص، لها قداستها وبهاؤها.[١]

وبينَ أيدينا واحدةٌ مِنْ بدائع القصص القرآنيّ التي تُؤصّل القيم الرّاسخة للدعوة المثمرة، هي قصّة الهدهد وسليمان عليه السّلام في سورة النمل، تلك القصّة التي ابتدأت بجهد داعية من الطير مُلئ حماساً وتضحية وغَيرة، وهو الذي لا يزن أكثر من «كيلو غرام»، ولكنّه دفع مَلِكاً رسولاً إلى حشد قوّته وإمكاناته لنصرة مُعتقدِهِ وإنفاذ دعوته، وانتهت بإسلام ملكة عظيمة تزن أمّة كاملة!

أسلمت ملكة وقومها بجهد عصفور، فكيف لو قام الدّعاة بما أوتوا مِنْ عقل

ورشد ، وحكمة وطاقة ، بواجبهم نحو الدعوة الإسلاميّة المباركة؟ إذاً لتغيّر وجه التاريخ المعاصر .

ولنبدأ أولاً بإلقاء الضّوء على شخصيات القصّة الكريمة :

١- سليمان عليه السلام:

هو سليمان بن داود ، ملكَ بعد أبيه أمر بني إسرائيل ، وآتاه الله النبوة ، وسخّر له الجنّ والإنس والطير والريح ، وآتاه مُلكاً عظيماً ، وكان سليمان عليه السّلام رجلاً غزّاء لا يكاد يقعد عن الغزو ،[٢] وقد ورد ذكره في مواضع كثيرة في القرآن الكريم ،[٣] قال تعالى :

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ * وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ . (النمل١٦-١٧)

٢- ملكة سبأ:

اسمها بلقيس بنت الهدهاد بن شرحبيل بن حمير ، وَليت الملك بعد أبيها ، وحاربت عمرو بن أبرهة فهزمته ، ووليت أمر اليمن كُلّه ، وزحفت إلى بابل وفارس ، واتخذت سبأ قاعدة لملكها .

وقد كانت امرأة أريبة أحرزت لمملكتها تقدُماً في التجارة والزراعة والحضارة ، وكانت تعبد الشّمس ، ثمّ أسلمت مع سيدنا سليمان عليه السّلام .[٤]

٣- الهدهد:

وهو المهندس الذي يدلّ سليمان على الماء ،[٥] يتسم بالإيمان والإدراك والبراعة ، ويعادلُ مُستوى العقلاء الأذكياء الأتقياء من النّاس![٦]

والهدهد طائر جذّاب اللّون والمظهر ، له قنزعة مُنتصبة تنتهي ريشاتها

بالسواد ، وله جناحان عريضان يميلان إلى الاستدارة ، ومنقار طويل دقيق مقوّس قليلاً إلى الأسفل ، وأرجل رمادية .

ويعيش في الأحراش والأراضي الزراعيّة ، ويتغذّى على الحشرات والزواحف الصغيرة . وهو معروف في الشّام .(٧)

٤- عفريت من الجنّ:

وهو أحد مردة الجن الذين كانوا عند سليمان عليه السّلام ، عَرضَ عليه أن يأتيه بعرش بلقيس ، وعرض قوته وأمانته . وأصلُ العفريت في اللّغة : الخبيث المنكر ، والنافذ في الأمر مع دهاء .(٨)

٥- الذي عنده علمٌ من الكتاب:

قيل هو رجل من الإنس من بني إسرائيل اسمه «آصف بن برخياء» ، وكان صِدّيقاً يعلمُ اسم الله الأعظم ، وقيل غير ذلك .(٩) والأحسن أن نقف عند حدّ النص القرآنيّ .

إنّ مدار الآيات الكريمة يرتكز على الدّعوة إلى الله ، تلك الوظيفة التي كُلّف بها الأنبياء والرّسل ، وكُلّفت بها أمتنا الإسلاميّة ، وحملها هذا الطائر العجيب فكرةً بين جوانحه ، وكتاباً بين أجنحته ، فآتت أُكلها : ذكراً خالداً للهدهد ، وأجراً لسليمان عليه السّلام ، وهدايةً لملكة سبأ وقومها : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ . (فصلت آية ٣٣)

القيم الدعوية:

وإنّه لجدير بكلّ داعيةٍ أن يتخذ من هذه القصة نبراساً يهتدي به في ترسيخ قيم الدعوة في نفسه وسلوكه ، وهو يتلوها آيات بيّناتٍ بوعي وتدّبر ، ويستخلص منها العبر والعظات ، ومن هذه القيم :

١- تفقّد الرعية والأسرة:

أن يتفقّد الداعيّة المسؤول رعيتَه متسلّحاً باليقظة والدّقة والحزم ، ويشرف عليها ، ويتعاهدها ، ولا يضيّع مَنْ يعول ، فسليمان عليه السّلام لم يغفل عن غيبة طائر من هذا الحشر الضخم من الجن والإنس والطيّر الذي يُجمع آخره على أوله كي لا يتفرّق وينتكث .[١٠] قال تعالى : ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لاَ أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ . (النمل آية ٢٠)

وفي هذا استحباب تفقّد الأصدقاء والخلاّن ، قال الشّاعر :

سنَّ سليمانُ لنا سُنةً

وكانَ فيما سنَّهُ مُقتدى

تفقّد الطيرَ على مُلكه

فقال : ماليَ لا أرى الهدهدا؟[١١]

٢- الاحتكام إلى كتاب الله:

أن يحتكم الدّعاة إذا اختلفوا بالحجة والبرهان إلى كتاب الله تعالى ، وسنة نبيّه عليه السّلام ، وذلك منعاً للفرقة والتباغض والاتهام :

﴿لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ . (النمل آية ٢١)

فالحجة الواضحة البالغة هي التي أنقذت الهدهد من العذاب والسّجن والذبح ، فقد جاء بما يجنّبه العقوبة ، ويقرّبه من سليمان عليه السّلام ، ويجعله في طليعة الدّعاة .

٣- الارتحال في سبيل العلم والدعوة والعمل:

أن يتجوّل الداعية في الأرض ، ويرتحل إلى أقطارها ؛ ليسطع النورُ في كل صقع من أصقاعها ، ودأبُه جمع المعلومات الصحيحة ، والإحاطة بالأخبار الدقيقَة عن أحوال الأمم والشعوب ؛ ليرفد الدعاة بخبرته وتجاربه ، فهذا الطائر

قطع مسافة كبيرة ما بين الشّام واليمن :
﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ . (النمل آية٢٢)

٤- إيراد الأخبار الصادقة الموثوقة:

أن يُدلي الداعية بالأخبار الصّادقة عن مشاهداته دون تزييف للحقائق ، أو تحريف أو مبالغة بعد أن تجشّم الأسفار ، وتحمّل الأخطار في رحلاته .

ويستلزم منه ذلك أن يكون قوي الحافظة ، مرهف الحسّ ، صاحب ذاكرة عميقة ، وقلم أمين :
﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ﴾ . (النمل٢٣-٢٤)

٥- امتلاك التصوّر الصحيح:

أن يمتلك الداعية التصوّر الصحيح لمضمون دعوته ، وأن يطّلع على كلّ ما يتعلق بفقه الدعوة ليدعو على بصيرة ، وينكر المنكر ، ويحاول تغييره حتى لا ينتشر الخطأ ، ويعمّ الإثم بين النّاس ، وله في الهدهد عبرة : تصوّر صحيح للتوحيد ، ودعوة صادقة للعبادة :
﴿أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُون * اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ . (النمل٢٥-٢٦)

٦- إسناد الأمر إلى أهله:

أن يُتاح المجال للداعية ذي الخبرة بأحوال المدعوين أن يتبوّأ الصّدارة في دعوتهم ومتابعتهم ، فقد خصّ سليمان الهدهد بحمل الرسالة دون غيره من الجند :

﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ . (النمل٢٧-٢٨)

٧- استعمال كافة الوسائل الدعوة:

أنْ يستخدم الداعية الوسائل المباحة المتاحة كلّها في تبليغ الدعوة :

﴿اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا﴾ فقد استخدم سليمان عليه السّلام أُسلوب الرسالة ، واستخدمها من بعد نبيّنا محمّد عليه السلام .

ومن الوسائل المعاصرة التي ينبغي أن يحرص الدعاة على استخدامها لما لها من نفع عظيم في الدعوة : الصحف والمجلات ، والكتب والنشرات ، والمذياع ، والتلفاز ، والقنوات الفضائيّة ، والحاسوب ، وشبكة المعلومات (الإنترنت) ، ومواقع التواصل الاجتماعي .

٨- دراسة أحوال المدعوّين:

أن يسخّر الداعية عقله وحواسه وجوارحه في دراسة أحوال المدعوين ورصد ردود أفعالهم :

﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ . (النمل ٢٨)

٩- أداء الدعوة على أكمل وجه، وحفظ وسائلها:

أن يحرص الداعية على أداء دعوته على أكمل وجه ، ويكون أميناً على وسائل الدعوة ومرافقها من رسالة ، أو كتاب ، أو جهاز ، أو حافلة ، أو مسجد ، كما حافظ الهدهد على كتاب سليمان وأوصله بأمانة وبراعة :

﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ . (النمل٢٩)

١٠- اكتساب مهارات اللغة البيانية:

أن يتسم أسلوب الداعية بالفصاحة والبيان ، والاقتصاد في الكلم والجهد

والوقت ، فقد دعا كتابُ سليمان إلى التوحيد والاستسلام في غاية البلاغة والوجازة والفصاحة ؛ فإنه حصَّل المعنى بأيسر عبارة وأحسنها : (١٢)

﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ . (النمل٣٠-٣١)

١١- استشارة الداعية إخوانه وأهل بلده:

أن يشاور الداعية إخوانه وأهل بلده ، فحسنُ المشورة يؤدي إلى إخضاع القوة والبأس للرأي السّديد ، ويقود إلى الهداية :

﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُون * قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ . (النمل٣٢- ٣٣)

١٢- دراسة تاريخ الأمم:

أن يدرس الداعية تاريخ الأمم ، ويستخلص منه العبر ، فهو ذاكرة البشر ، وسجل أحداثها ، يوسّع آفاق الداعية ، ويعينه على فهم الواقع الحاضر ، وهو أصدق شاهد على ما يدعو إليه الدّين :(١٣)

﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ . (النمل٣٤)

١٣- الحذر من إغراء المال، أو المتاع:

أن يحذر الداعية من محاولة بعض المدّعوين أن يغريه بالمال ، أو المتاع للتغلّب عليه ، واحتواء دعوته ، وبخاصة ما يُقدّم بأسلوب الهدية المُحبّب إلى النفس :

﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ . (النمل٣٥)

١٤- رفض الداعية أشكال الإغواء والإغراء:

أن يرفض الداعية أشكال الإغواء والإغراء كلَّها ، ويصرّ على إبلاغ دعوته ، وتنفيذ أمر الله ، فحطام الدنيا زائل ، وما عند الله خير وأبقى ، والعاقبة للمتقين :

﴿فَلَمَّا جَاء سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ . (النمل٣٦)

١٥- تسخير الداعية كلّ ما آتاه الله مِن قوّة في نصرة الحق:

أن يسخّر الداعية كلّ ما آتاه الله مِن قوّة في نصرة الحق مستعلياً بإيمانه ، ومعتزّاً بدينه القويم :

﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ . (النمل٣٧)

١٦- إطلاق مواهب الدعاة:

أن تُطلق مواهب الدعاة في استحضار الأساليب والوسائل المناسبة لإقناع المدعوين بصحة الدّعوة :

﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ . (النمل٣٨)

١٧- حشد الداعية قدراته ومواهبه:

أن يحشد الداعية قدراته ومواهبه ، وما ألهمه الله من ذكاء وحكمة ، ويسخّرها في حقل الدّعوة منافساً غيره من الدّعاة في نيل مرضاة الله وابتغاء الدّار الآخرة .

ولننظر كيف نافس الذي عنده علمٌ من الكتاب ذلك العفريت من الجنّ ، وتفوّق عليه ، وما ضنّ بعلمه ولا بجهده في سبيل الدّعوة :

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ۞ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ . (النمل ٣٩ - ٤٠)

١٨- شكر الداعية نعم الله عليه، والإقرار بها:

أن يشكر الداعية نعم الله عليه ، ويقرّ بها ، ويدرك أنّها للابتلاء تدوم بالشكر والثناء ، وتزول بالجحود والنكران . وما أحسن ما استقبل به سليمان نعمة إحضار عرش الملكة :

﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ . (النمل ٤٠)

١٩- اختبار الداعية قدرات المدعوين:

أن يختبر الداعية قدرات المدعوين ، ويسبر أغوار نفوسهم ، ويحاورهم ليخاطبهم على قدر عقولهم ، ومبلغ علمهم ، ويغدق عليهم من فضائل الدعوة قدر وسعهم وطاقتهم . وقد بيّنت القصة الكريمة أنّ سليمان عليه السّلام قد اختبر الملكة بتنكير عرشها وإدخالها القصر المصنوع من البلّور! فانبهرت لهذا الاختبار أيّما انبهار :

﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ۞ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ۞ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ۞ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾ . (النمل ٤١-٤٤)

٢٠- اعتراف الداعية بذنبه، وإقراره بتقصيره في جنب الله تعالى:

أن يعترف الداعية بذنبه ، ويقرّ بتقصيره في جنب الله تعالى ، ويلتجئ إلى

الله في السّر والعلن ، ويُعلن توبته واستسلامه لله ربّ العالمين :

﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .
(النمل٤٤)

وهكذا كُلّل جهد الهدهد بتتويج الملكة تاج الهداية على يدي النّبي الحكيم الذي أصبحت قصّته آياتٍ من كتابِ ربّنا نتلوها آناء اللّيل ، وأطراف النّهار ، ونستلهم منها القيم الدعوية الخالدة في عصرنا الحاضر .

الهوامش:

(١) نجيب الكيلاني ، حول القصة الإسلاميّة ، ط١ ، مؤسسة الرسالة - بيروت ١٤١٢هـ ١٩٩٢م . ص ٩ وما بعدها .

(٢) صالح خريسات ، تهذيب تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك) دار الفكر - ١٩٩٢م . ص ٨٤ - ٨٥ .

(٣) محمد فؤاد عبد الباقي ، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، ط٢ ، دار الفكر- بيروت ١٤٠١هـ ١٩٨١م . ص ٣٥٧ مادة (سلم) .

(٤) د . حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الإسلام ، ط٧ ، دار الأندلس - بيروت ١٩٦٤م . ج١ ، ص ٢٤ - ٢٨ . وانظر الموسوعة العربية الميسرة ، م ١ ، ص ٤٠٠ .

(٥) مختصر تفسير ابن كثير ، تحقيق : محمد علي الصابوني ، دار الفكر - بيروت . م٢ ، ص ٦٦٨ .

(٦) سيد قطب ، في ظلال القرآن ، ط١٧ ، دار الشروق- القاهرة ، بيروت ١٤١٢هـ ١٩٩٢م ، م٥ ، ص ٢٦٣٦ ، ٢٦٣٩ .

(٧) أرسلان رمضان ، د . هالة الحوراني ، طيور الأردن ، ط١ ، عمان ١٩٩٢م . ص ١٢٢ .

(٨) د .إبراهيم أنيس ورفاقه ، المعجم الوسيط ، ط٢ ، القاهرة ، مادة (عفر) ، ص ٦١١ .

(٩) مختصر تفسير ابن كثير ، م ٢ ، ص ٦٧٢-٦٧٣ .

(١٠) في ظلال القرآن ، م٥ ، ص ٢٦٣٨ .

(١١) محمد علي الصابوني ، صفوة التفاسير ، المكتبة الفيصلية - مكة لمكرمة ، م٢ ، ص ٤١١ .

(١٢) مختصر تفسير ابن كثير ،م ٢ ، ص ٦٧٠ .

(١٣) د . يوسف القرضاوي ، ثقافة الداعية ، ط٩ ، مكتبة وهبة - القاهرة ١٤١١هـ ١٩٩٠م ، ص ٨٨- ٩٠ .

المكانة العلميّة

للأعدادِ الحِسَابيَّةِ في الآياتِ القُرآنيَّةِ

- ضبط الكون وإحصاء كُلّ ما فيه
- الدّعوة إلى الدّقة الحسابيّة المتناهية
- ارتباط أكثر الأحكام الشرعيّة بالحساب
- إحصاء أجل الإنسان وأعماله
- محاسبة الخلائق يوم القيامة

المكانة العلميّة
للأعدادِ الحِسَابيةِ في الآياتِ القُرآنيةِ

لا ريبَ أنَّ من أهمّ فرائد الإنسان الناطقة ببيانه ، المودعة في كيانه ، هي قدرته الحسابيّة على الضّبط والإحصاء ، وإجراء العمليّات المعقّدة ، وحلّ المسائل المُعضلة .

وما كانت هذه العبقريّة الرياضيّة لتتأتّى للإنسان ، وما كان له أن يبتدعها من تلقاء نفسه ، لولا نعمةُ الحكيم الوهّاب الذّي جعل اللّيل والنّهار خِلفة ، وجعل الشمس والقمر بحسبان ، وأبدع النجوم ، وصيّر هذه المخلوقات علاماتٍ ؛ ليهتدي بها الإنسان في حساب الأوقات ومعرفة السّاعات :

- ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ . (يونس ٥)

- ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ . (الإسراء ١٢)

وبهذه النعمة الجليلة أسهمت الحضارات الإنسانيّة المتعاقبة منذ أقدم العصور في التأصيل لهذا العلم الدقيق حتى بلغ في عصرنا الحاضر الذّروة في الدّقة والعمق والتنوّع بفضل تقدّم الأجهزة ، وشيوع التقنية ، واختراع الآلة الحاسبة ، وأجهزة الحاسوب المتطوّرة (الكمبيوتر) .

وكان للحضارة العربيّة الإسلاميّة في عصورها الزاهرة أعظم الإسهام في هذا المجال حين كانت تستهدي بالكتاب الحكيم والسنة المُطهّرة ، ومن ذلك :

١- نقل الأرقام من الهنديّة إلى العربيّة ، تلك الأرقام التي نقلها الهنود عن قبائل «المايا» ، ونُقلت من العربيّة إلى أوروبا عبر الأندلس ، وتُعرف اليوم في الغرب بالأرقام العربيّة : Arabic numerals

٢- استعمال الصّفر الذّي مكّن من حلّ الكثير من المعادلات الرياضيّة ، وكان أهم فتوحات العلم الرياضيّ ، ونُقل إلى أوروبا ، وسمّيت هذه الدائرة الصغيرة : (٠) Zero

٣- وضع علم الجبر على يد الخوارزميّ (١٦٤هـ) في كتابه «الجبر والمقابلة» .

وهو مأثرة عربيّة كبرى ، وقد تُرجم إلى مختلف اللّغات ، ولا يزال الفرنجة يحتفظون باسمه العربيّ Algebra ، ودرّسته الجامعات الأوروبيّة حتى القرن السادس عشر .

٤- ابتداع علم التفاضل والتكامل Calcaulus على يد ثابت بن قّرة (٢٨٩هـ) ومشاركة البوزجاني أبي الوفاء المهندس (٣٨٧هـ) .

٥- تأصيل علم حساب المثلثات ، وجعله علماً مستقلاً عن الفلك على يد البيرونيّ وغيره حيث تقدّمت بحوث الهندسة والمساحة والطبيعة .

ولأجل ذلك كُلّه ذهب مؤرخو الرياضيات الغربيّون إلى أنّ العرب لا اليونان هم أساتذة الرياضيين في عصر الحضارة الأوروبية الحديثة .(١)

لقد كان القرآنُ الكريم المُفجّرَ الأول لهذه المَلَكة الرياضيّة المذهلة ، وذلك لاشتماله على كثير من الأعداد والمسائل الحسابيّة والقضايا المتعلّقة بالإحصاء ، تلك التي تستثير العقل ، وتدعوه إلى التدّبر والبحث والاستقصاء ، وذلك في جوانب عدّة :

١- ضبط الكون وإحصاء كُلّ ما فيه:

﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ . (الجن ٢٨) ومن مظاهر ذلك :

أ - ضبط الكواكب والنجوم بالحساب الدقيق :

﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ . (الأنعام ٩٦)

ب - ضبط عدد السموات والأرض وأيام خلقها :

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ . (الطلاق ١٢)

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ . (السجدة ٤)

ج- ضبط شهور السّنة:

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ . (التوبة ٣٦)

٢- الدّعوة إلى الدّقة الحسابيّة المتناهية: ومن ذلك:

أ - كتابة الدَّين : (وما يشمل من أرقام وأعداد وشروط)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ . (البقرة ٢٨٢)

ب - توفية الكيل والوزن : ﴿وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ . (الأنعام ١٥٢)

ج- معرفة الفروض المُقدّرة والعمل بها في المواريث وهي : [٢]

النصف ، والربع ، والثّمن ، والثلثان ، والثّلث ، والسّدس . (تدبّر الآيتين ١١ ، ١٢ من النساء) .

٣- ارتباط أكثر الأحكام الشرعيّة بالحساب:

أ - صوم رمضان : ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ . (البقرة ١٨٥)

ب - حجّ البيت : ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾ . (البقرة ١٩٧)

ج- الظهار : ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ

مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ . (المجادلة ٣- ٤)

د- الإيلاء : ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاؤُوا فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ . (البقرة ٢٢٦)

هـ- العدّة : ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ . (البقرة ٢٣٤) . وغير ذلك كاللّعان والرضاعة والكفّارات المختلفة والحدود .

٤- إحصاء أجل الإنسان وأعماله:

- ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾ . (الأعراف ٣٤)
- ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ . (الكهف ٤٩)

٥- محاسبة الخلائق يوم القيامة:

وهي محاسبة عادلة لا ظلم فيها ، تُحصي كُلّ شيء مهما صَغُر ، والمُحاسبُ فيها هو الواحد القهّار ، مالك يوم الدّين ، أسرع الحاسبين :

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ . (الأنبياء ٤٧)

والأعداد الحسابيّة الواردة في القرآن الكريم كثيرة متنوعة تحفز الذّهن على التأمل ، والتفكير الإبداعيّ ، والتمرين العمليّ في الإحصاء والتنظيم ، وحلّ المسائل وبسطها .

وقد وردت هذه الأعداد في نسق قرآنيّ بديع ، «فالأرقام التي تقتل الأدب ، وتجفّف رُوائيّة السّياق والنّص ، هذه الأرقام تكتسي في القرآن الكريم جمالاً في النّسق علاوة على حسن جمالٍ في الإيقاع حتى لا تملّ له الأذان سماعاً وترديداً . وحسبُك من ذلك قوله تعالى في سورة الكهف :

﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ ، وليجرّب مَنْ شاء وضع الرقم (٣٠٩) في أي نسق أو سياق ، ثمّ فلينظر كم درجة التئامه وجماله بالقياس إلى هذا الذّي يُعجب ويُطرب» .(٣)

ولسنا نريد أن نجلّي هذه الأعداد من جهة النحو والإعراب ، فقد أفردتْ لها كتبُ النحو أبواباً كثيرة من حيث أقسامها الاصطلاحية ، وترتيبها ، وتذكيرها وتأنيثها .(٤)

وإنما المقصود تجلية العدد الحسابيّ الصّريح المتعلّق بالأحياء والأشياء ، العدد الذي عرّفه القدماء بقولهم : «هو ما وضع لكمية الآحاد أي : الأفراد ، وأنّ من خواصّه مساواته لنصف مجموع حاشيتيه المتقابلتين» . فالعدد ثمانية مثلاً حاشيته العليا : تسعة ، وحاشيته السّفلى : سبعة ، و مجموعهما ستة عشر ، وهما يُحيطان به ، فمقداره يساوي نصف مجموعهما :

$$٨ = \left[\frac{٧+٩}{٢}\right] \quad \text{وكذا} \quad ٦ = \left[\frac{٧+٥}{٢}\right]$$

وهكذا .(٥)

وقد كان لهذه الأعداد الحسابيّة أبلغ الأثر في دعوة الأنبياء والرُّسل وسِيَر الصّالحين ، فكان لها أقوى حضور ، وأعرض امتداد في آيات القصص القرآنيّ ، فلم ترد عبثاً ، بل كان ورودها لحكم عليا وغايات سامية انتظمها السّياق القرآني أروعَ انتظام ، وأبدعَ انسجام ، وهي تشير إلى دلائل وحدانية الله وقدرته في إقامة الحجج الدافعة بالمعجزات السّاطعة ، وتضع السبيل المثلى للدّعاة الصّادقين المتعاقبة أفواجهم إلى يوم القيامة .

ومن الطريف أن نجد إشاراتٍ قرآنيةً واضحة إلى العمليات الحسابية الأربع ، وهي :

١- الجمع:

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ .(البقرة ١٩٦) (وبالرموز : ٣+٧=١٠) .

– ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ . (الأعراف ١٤٢) . (وبالرموز :٣٠+١٠=٤٠) .

٢- الطّرح:

– ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلًا * نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ . (المزمل ١- ٤) (بالرموز :١/٢- (س) رمز القليل) .

٢- القسمة:

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ * لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ . (الحجر ٤٣- ٤٤)

– ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ . (الشعراء ١٥٥)

– ﴿إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ * وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ . (القمر ٢٧- ٢٨)

– ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ . (الأعراف ١٦٠) (بالرموز ١٢/١٢=١) .

٤- الضّرب:

(مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ

فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاء وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ(. (البقرة ٢٦١)

(وبالرموز ١× ٧× ١٠٠ = ٧٠٠) .

ولسنا نعني بهذه العمليّات الحسابيّة أنّ القرآن الكريم هو كتاب «رياضيات» ، وإنّما هو كتاب هداية للعالمين ، فيه هدىً ونور ، وتفصيل كُلّ شيء ، وفيه إشارات علمية باهرة .

وقد حفلت حياة الأنبياء والرّسل والمؤمنين الصّالحين بتغيّرات مختلفة ، وتفاعلات كثيرة ينتابها السّرور والابتهاج كما ينتابها الحزن والألم ، والفقر والغنى ، والصّحة والمرض ، والأمن والخوف ، والقوّة والضعف ، والاستقرار والارتحال ، فعبرّت الأعداد الحسابيّة الواردة في القرآن عن كثير من هذه التفاعلات والأحوال التي يمكن إجمالها فيما يلي :

أوّلاً - الدّعوة إلى توحيد الله تعالى وعبادته:

وهي مسؤولية عظيمة اضطلع بها الأنبياء والرّسل ، وحملها أتباعهم من لدن آدم عليه السلام حتى آخر مؤمن حيّ في الوجود :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ . (الأنبياء ٢٥) .

وأساس الدعوة الراسخ هو وحدانية الله ، وأنّه واحد أحد ، لا شريك له في ذاته ولا صفاته ولا أفعاله ، وأنه ربّ كلّ شيء ومليكه وخالقه ، المتصف بصفات الكمال .[٦]

ويقتضي ذلك أمرين مهمّين : الإخلاص ، والعمل الصّالح :

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ . (الكهف ١١٠) .

أمّا العدد «اثنان» أو «ثلاثة» في مجال الاعتقاد ، فهما يُخرجان الإنسان من دائرة الإيمان إلى الكفر البواح ، والعياذ به ؛ ذلك لأنّ الله واحد لا يتعدّد ، فرد

صمد ، لم يلد ولم يولد :

- ﴿وَقَالَ اللّهُ لاَ تَتَّخِذُواْ إِلهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلهٌ وَاحِدٌ فَإيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ . (النحل ٥١) .

- ﴿فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ انتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً﴾ . (النساء ١٧١) .

- ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ . (المائدة ٧٣) .

ثانياً - إسباغ الله نعمه على رسله وعباده ومخلوقاته:

أ- إنجاء نوح عليه السلام ومن معه في السفينة ، وإنقاذ حياة الكائنات :

﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ﴾ . (هود ٤٠) .

ب- منّ الله تعالى وفضله على يوسف عليه السلام :

١- تعليمه تأويل الأحاديث ، وتعبير رؤيا الملك :

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ (يوسف ٤٣- ٤٩) .

٢- إخراجه من السّجن ، والتمكين له في الأرض ، بعد أن طرحه إخوته في بئر بعيدة :

﴿فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ . (يوسف ٤٢) .

٣- سجود أبويه وإخوته له :

- ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ . (يوسف ٤) .

- ﴿وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ . (يوسف ١٠٠)

ج- منّ الله تعالى وفضله على موسى عليه السلام :

١- تكليم موسى وإنزال التوراة :

﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾ . (البقرة ٥١) .

٢- إيتاء موسى تسع آيات وهي :

العصا ، واليد ، والطوفان ، والجراد ، والقمّل ، والضفادع ، والدم ، وانغلاق البحر ، والسنين :

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ . (الإسراء ١٠١) .

٣- انفجار الماء من الحجر :

﴿فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ . (البقرة ٦٠) .

د- منّ الله تعالى وفضله على داود عليه السلام :

- تسخير الجبال والطير لتسبّح معه .
- شدّ ملكه وتقويته ، وجعله خليفة في الأرض .
- منحه الحكمة وفضل الخطاب ومغفرة الله تعالى بعد حكومته بعد الخصمين :

﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ * قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإنّ كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصّالحات وقليلٌ ما هم وظنَّ داود أنّما فتنّاه فاستغفر ربّه وخرّ راكعاً وأناب * فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ . (ص ٢٣-٢٥) .

هـ- منّ الله تعالى وفضله على زكريا عليه السلام :

بشّر الله تعالى زكريا بولد اسمه يحيى رغم كبر سنّه ، وعقم زوجته وشيخوختها ، وجعلَ علامةَ حملها بالمولود امتناعَه عن تكليم الناس ثلاثة

أيام إلاّ بالإشارة ، ولم يُمنع عن ذكر الله :

- ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيَ آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾ . (آل عمران ٤١) .
- ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ . (مريم ١٠) .

و- منّ الله تعالى وفضله على مُحمّد عليه السلام :

١- آتاه القرآن والسبع المثاني (الفاتحة) :

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ . (الحجر ٨٧) .

٢- أيّده بنصره وملائكته في الهجرة مع صاحبه أبي بكر رضي الله عنه :

﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ . (التوبة ٤٠) .

٣- أمدّه الله بالملائكة في قتال المشركين :

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاَثَةِ آلاَفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُنزَلِينَ * بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ . (آل عمران ١٢٤- ١٢٥)

٤- جعل له سهماً من خُمس الغنائم :

﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ . (الأنفال ٤١) .

٥- خصّ أُمته بليلة القدر :

﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ . (القدر ٣) .

٦- خصّ أمته بعشرة أيام مباركة :

قيل هي العشر من ذي الحجة أو محرّم أو رمضان(٧) . ﴿وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ . (الفجر ١- ٢) .

٧- تاب الله عليه وعلى المهاجرين والأنصار وعلى الثلاثة الذّين خُلّفوا :
﴿لَقَد تَّابَ الله عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ * وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ . (التوبة ١١٧- ١١٨) .

ثالثاً - رصد أحوال المدعوين بالضبط والإحصاء:

ويشمل نماذج بشرية مختلفة عبر العصور شاء الله أن يُورد في كتابه الحكيم ما يتصلّ بها من أعداد حسابيّة ؛ لتكون عبرة وعظة :

أ- بيان عدد من المفسدين الكبار من قوم صالح :
﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ﴾ . (النمل ٤٨) .

ب- تحديد المدّة الزمنيّة لإنذار قوم صالح :
﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ . (هود ٦٥) .

ج- بيان مدّة إهلاك قوم هود عليه السلام :
﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ (الحاقة ٧) .

د- تحديد مدّة لبث نوح ودعوته في قومه :
﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ * فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ . (العنكبوت ١٤- ١٥) .

هـ- بيان عدد النقباء والقبائل في عهد موسى عليه السلام :
- ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَبَعَثْنَا مِنهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ . (المائدة ١٢) .
- ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ . (الأعراف ١٦٠) .

و- بيان عدد المدعوين المؤمنين من قوم يونس عليه السلام :

﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ * فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ . (الصافات ١٤٧- ١٤٨) .

ز- الكشف عن حرص اليهود على الحياة وطول العيش فيها :

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ . (البقرة ٩٦) .

ح- الإخبار عن مدّة التيه التي قضاها بنو إسرائيل :

﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ﴾ . (المائدة ٢٦) .

ط- الإخبار عن المدّة التي قضاها موسى في مدين :

﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾ . (القصص ٢٧) .

ي- بيان العدد الذي تغلبه الفئة المؤمنة الصّابرة :

﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ يَغْلِبُواْ أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ * الآنَ خَفَّفَ اللّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُواْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ . (الأنفال ٦٥- ٦٦) .

رابعاً - التدليل على قُدرة الله في الإحياء والإماتة:

أ- إحياء الطّيور الأربعة لإبراهيم عليه السلام :

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ . (البقرة ٢٦٠) .

ب- إحياء الله السبعين من بني إسرائيل بعد أن أماتهم حرقاً :

- ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ

لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ﴾ . (الأعراف ١٥٥) .

- ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُون * ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ . (البقرة ٥٥- ٥٦) .

ج- إحياء المارّ على القرية (عزير) بعد أن أماته الله مائة عام ، وإحياء حماره أمام ناظريه :

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ﴾ . (البقرة ٢٥٩) .

د- إحياء الألوف من بني اسرائيل بعد أن أماتهم الله :

قيل كانوا سبعين ألفاً دعاهم ملكهم إلى الجهاد ، فهربوا خوفاً من الموت ، فأماتهم اللهُ ثمانية أيام ثُمّ أحياهم بدعوة نبيّهم «حزقيل» .[8]

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُواْ من دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْت فَقَالَ لَهُمُ اللّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ﴾ . (البقرة ٢٤٣) .

هـ- بعث الله تعالى أهل الكهف بعد أن أرقدهم ثلثمائة وتسع سنين :

﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ . (الكهف ٢٥) .

وقد أخبر القرآن عن اختلاف الناس في عددهم :

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ . (الكهف ٢٢) .

خامساً - إظهار عظمة كلمات الله وإعجاز كتابه العظيم:

أ- إظهار عظمة كلمات الله عزّ وجلّ وأنّها لا تنفد ولا تنتهي ، ولو جُعلت أشجارُ الأرض أقلاماً والبحر ومعه سبعة أبحر مداداً :

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ من شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ . (لقمان ٢٧) .

ب- تحدي القرآن للعرب وللنّاس جميعاً بأن يأتوا بعشر سور مثله :

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ . (هود ١٣) .

ج- تصوير القرآن لأهوال الحشر والنّار :

١- مقدار اليوم في الآخرة :

﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ . (الحج ٤٧) .

٢- مقدار يوم القيامة :

﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ . (المعارج ٤) .

٣- تقدير المجرمين لمدة لبثهم في الدنيا :

﴿يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْرًا﴾ . (طه ١٠٣) .

٤- عدد أبواب جهنّم :

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ . (الحجر ٤٣- ٤٤) .

٥- عدد خزنة النّار :

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَر * لاَ تُبْقِي وَلاَ تَذَر * لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَر * عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ . (المدثر ٢٧- ٣٠) .

٦- طول سلسلة العذاب في الجحيم :

﴿خُذُوهُ فَغُلُّوه * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوه * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ . (الحاقة ٣٠- ٣٢)

ومن أجل الوقوف الدقيق على القيمة العلمية لأعداد القرآن يأتي تصميم هذه الجداول التوضيحية التي تشتمل على الأعداد جميعها في القرآن الكريم .

الجداول التوضيحيّة

المواريث (جدول ١)

١/٢	٤/١	٨/١	٣/٢	٣/١	٦/١	النساء آية ١١- ١٢
النصف	الرّبع	الثمن	الثلثان	الثلث	السّدس	

الحدود (جدول ٢)

الرقم	نوع الحدّ	عدد الجلد	السورة - الآية
١-	الزّنا	١٠٠	النور ٢
٢-	القذف	٨٠	النور ٤

العِدّة (جدول ٣)

حال المرأة	يوم المدة	شهر	السورة	الآية
إيلاء	—	٤	البقرة	٢٢٦
زوجة مات زوجها	١٠	٤	البقرة	٢٣٤
أ- مطلقة (لا تحيض)	—	٣	الطلاق	٤
ب- مطلقة (تحيض)	—	(٣ قروء)	البقرة	٢٢٨

الكفّارة (جدول ٤)

الرقم	من تقع عليه	مقدار الكفّارة				السورة	الآية
		تحرير رقبة	صيام (يوم)	إطعام (مسكين)	كسوة (مسكين)		
١-	الظهار (المظاهر)	١	٦٠	٦٠	—	المجادلة	٣ ، ٤
٢-	لم يجد الهدي (الحاج)	–	١٠	—	—	البقرة	١٩٦
٣-	اليمين (الحالف)	١	٣	١٠	١٠	المائدة	٨٩

الشُّهود (جدول ٥)

الرقم	الحالة	العدد	السّورة	الآية
١-	اللّعان	٤	النور	٦
٢-	الوصية	٢ مسلمين/٢ من غيرهم	المائدة	١٠٦
٣-	القذف	٤	النور	٤
٤-	الإفك(لم يأتوا بـ	٤	النور	١٣
٥-	الطلاق - الرجعة	٢	الطلاق	٢
٦-	زنا الزوجة	٤	النساء	١٥
٧-	الدَّين	رجل١ / امرأة ٢	البقرة	٢٨٢

الآيات والمعجزات (جدول ٦)

الرقم	الآيات	العدد	السورة	الآية
١-	السبع المثاني	٧	الحجر	٨٧
٢-	سُور تحدي العرب	١٠	هود	١٣
٣-	آيات (موسى)	٩	الإسراء	١٠١

عبادة الرّسول محمّد ﷺ (جدول ٧)

الرقم	العبادة	العدد	السورة	الآية
١-	قيام اللّيل	٣/٢ ٢/١ ٣/١	المزمل	٢٠
٢-	الاستغفار (لا ينتفع منه المنافقون)	٧٠	التوبة	٨٠

أطوار الإنسان وأحواله (جدول ٨)

الرقم	الحالة	العدد		السّورة	الآية
١-	جنين في الرحم	٣	ظلمات	الزمر	٦
٢-	حمل وفصال	٣٠	شهراً	الأحقاف	١٥
٣-	الرضاعة	٢	حول	البقرة	٢٣٣
٤-	بلوغ الكهولة	٤٠	سنة	الأحقاف	١٥
٥-	تعدد الزّوجات	٢/٣/٤		النساء	٣
٦-	أوقات الاستئذان	٣	أوقات	النور	٥٨
	وعوراته	٣	عورات	النور	٥٨
٧-	أجر الحسنة	١٠	أمثالها	الأنعام	٦٠
٨-	اطلاع الله على المتناجين	٣ ، ٥		المجادلة	٧
٩-	مرات الحياة	٢	مرة	غافر	١١
	مرات الموت	٢	مرة	غافر	١١

ظواهر طبيعية (جدول ٩)

الرقم	الظاهرة	العدد	السورة	الآية
١-	السموات	٧	الطلاق	١٢
٢-	الأرض	٧	الطلاق	١٢
٣-	الكواكب	١١	يوسف	٤
٤-	الليل	١٠	الفجر	١-٢
٥-	البحار	٧	لقمان	٢٧
٦-	العيون	١٢	البقرة	٦٠

الكائنات الحيّة (جدول ١٠)

الرقم	الكائن	العدد	السورة	الآية
١-	الطيور	٤	البقرة	٢٦٠
٢-	النعاج	٩٩	ص	
		١*	ص	٢٣-٢٥
٣-	حمير	١*	البقرة	٢٥٩
٤-	كلاب	١*	الكهف	٢٥
٥-	أقدام الدواب	٤	النور	٤٥
		٧ سمان		
٦-	البقر	٧ عجاف	يوسف	٤٣
		٧ خُضر		
٧-	السنابل	٧ يابسات	يوسف	٤٣-٤٩
		٨-	الزمر	٦
		٢ من الضأن		
		٢ من المعز	الأنعام	

٨	الأنعام	٢ من الإبل ٢ من البقر		١٤٤-١٤٣
٩-	من كلّ الثمرات	٢	الرعد	٣
١٠-	من جميع الكائنات	٢	هود	٤٠

* نقصد بالحمار حمار عُزير ، وبالكلب كلب أهل الكهف .

النّماذج البشريّة (جدول ١١)

الرقم	الصّنف	العدد	السورة	الآية
١-	المار على القرية (عُزير)	١	البقرة	٢٥٩
٢-	رسل أصحاب القرية	٣/٢	يس	١٤
٣-	أصحاب الغار	٢	التوبة	٤٠
٤-	صحابة خُلّفوا	٣	التوبة	١١٨
٥-	أهل الكهف	٧/٥/٣*	الكهف	٢٥
٦-	مفسدون من ثمود	٩	النمل	٤٨
٧-	نقباء/من اليهود	١٢	المائدة	١٢
٨-	قبائل/يهود	١٢	الأعراف	١٦٠
٩-	أصحاب موسى	٧٠	الأعراف	١٥٥
	قوة المسلمين	٢٠٠=٢٠ ١٠٠٠=١٠٠		
١٠-	تخفيف	٢٠٠=١٠٠ ٢٠٠٠=١٠٠٠	الأنفال	٦٦-٦٥
١١-	قوم يُونس (مؤمنون)	١٠٠٠٠٠ (أو يزيدون)	الصافات	١٤٧
١٢-	بنو إسرائيل	أُلوف . . .	البقرة	٢٤٣

* رواية ابن عباس وعطاء أنّهم سبعة (مختصر ابن كثير ، م ٢ ، ص ٤١٤)

المُدَد الزمنيّة (جدول ١٢)

		المــــــــدة				
الرقم	الحدث/الأمر	يوم	شهر	سنة	السورة	الآية
١-		٦	-	-	السجدة	٤
٢-	خلق الأرض	٢	-	-	فصلت	٩
٣-	تقدير أقوات الأرض	٤	-	-	فصلت	١٠
٤-	مقدار السنة	-	١٢	-	التوبة	٣٦
٥-	الأشهر الحرم	-	٤	-	التوبة	٣٦
٦-	صوم رمضان	-	١	-	البقرة	١٨٥
٧-	مدة لمن عاهد الرسول	-	٤	-	التوبة	٢
٨-	قدر ليلة القدر	-	١٠٠٠	-	القدر	٣
٩-	دعوة نوح لقومه	-	-	٩٥٠	العنكبوت	١٤-١٥
١٠-	هلاك عاد (٧ ليال)	٨	-	-	الحاقة	٧
١١-	إنذار صالح لقومه	٣	-	-	هود	٦٥
١٢-	لبث يوسف في السجن	-	-	بضع سنين	يوسف	٤٢
١٣-	أحوال الزراعة زمن يوسف	-	-	٧ رخاء ٧ قحط	يوسف	٤٧-٤٨
١٤-	لبث موسى في مدين	-	-	٨-١٠	القصص	٢٧
١٥-	مواعدة موسى	٤٠	-	-	البقرة	٥١
١٦-	تيه بني إسرائيل	-	-	٤٠	المائدة	٢٦
١٧-	امتناع زكريا عن الكلام	٣	-	-	آل عمران	٤١
١٨-	موت العزير وحماره	-	-	١٠٠	البفرة	٢٥٩
١٩-	رقود أهل الكهف وكلبهم	-	-	٣٠٩	الكهف	٢٥
٢٠-	أمنية اليهود بالعيش الطويل	-	-	١٠٠٠	البقرة	٩٦

الملائكة (جدول ١٣)

الرقم	العدد	أعمالهم	السورة	الآية
١-	٨	حملة العرش	الحاقة	١٧
٢-	١٩	خزنة النار	المدثر	٣٠
٣-	٣٠٠٠			
٤-	٥٠٠٠	مَدَد للمؤمنين	آل عمران	١٢٤
٥-	٢ ، ٣ ، ٤	(أجنحتهم)	فاطر	١

الموتى والنيّام الذين أحياهم الله (جدول ١٤)

الرقم	الصنف	العدد	المدة بالسنة	السورة	الآية
١-	طيور	٤	-	البقرة	٢٦٠
٢-	أصحاب موسى	٧٠	-	الأعراف	١٥٥
٣-	المار على القرية	١	١٠٠		
٤-	حماره	١	١٠٠	البقرة	٢٥٩
٥-	بنو إسرائيل	أُلوف	-	البقرة	٢٤٣
٦-	أهل الكهف	٧/٥/٣			
٧-	كلبهم	١	٣٠٩	الكهف	٢٥

أهوال القيامة (جدول ١٥)

الحالة	مقدار يوم القيامة	مقدار اليوم الواحد	لبث المجرمين في الدنيا	أصناف الناس	أبواب جهنم	طول السلسلة	لهب جهنم	خزنة جهنم
العدد	٥٠٠٠٠ سنة	١٠٠٠ سنة	١٠ أيام	٣ أصناف	٧ أبواب	٧٠ ذراعاً	٣ شعب	١٩ ملكاً
السُّورة	المعارج	الحج	طه	الواقعة	الحجر	الحاقة	المرسلات	المدثر
الآية	٤	٤٧	١٠٣	٧	٤٤	٣٢	٣٠	٣٠

الأنبياء والرّسل (جدول ١٦)

الرقم	النبي	ما يتعلق به	العدد	الصنف	يوم	شهر	سنة	السّورة	الآية
١-	نوح	لبثه في قومه	–	–	–	–	٩٥٠	العنكبوت	١٤
٢-	هود	هلاك قومه	–	–	٨	–	–	الحاقة	٧
٣-	صالح	مفسدو قومه	٩	مفسدين	–	–	–	النمل	٤٨
		إنذاره لقومه	–	–	٣	–	–	هود	٦٥
٤-	إبراهيم	رؤيته إحياء الموتى	٤	طيور	–	–	–	البقرة	٢٦٠
٥-	يوسف	سجنه	–	–	–	–	بضع سنين	يوسف	٤٢
٦-	موسى	لبثه في مدين	–	–	–	–	٨-١٠	القصص	٢٧
		مواعدة الله له	–	–	٤٠	–	–	البقرة	٥١
		آياته	٩	آيات	–	–	–	الإسراء	١٠١
		مسألة	٩٩	نعجة					
٧-	داود	الخصمين	١	نعجة	–	–	–	ص	٢٣

٨-	يونس	إيمان قومه	١٠٠٠٠٠	إنسان	–	–	–	الصّافات	١٤٧
٩-	زكريا	امتناع الكلام	–	–	٣	–	–	آل عمران	٤١
١٠-	محمد	السبع المثاني	٧	آيات	–	–	–	الحجر	٨٧
		سهم الغنائم	١/٥	غنائم	–	–	–	الأنفال	٤

الأعداد المتعلّقة بكفّار مكة (جدول ١٧)

الرقم	المتعلّقات	العدد	البيان	السورة	الآية
١-	أصنام (اللات ، العزى ، مناة)	٣	أصنام	النجم	٢٠
٢-	غنائم (من قريش وغيرهم)	١/٥	للرسول	الأنفال	٤
٣-	سياحة المعاهدين للرسول	٤	أشهر	التوبة	٢
٤-	ما أُوتوا بالنسبة للأمم السابقة	١/١٠	قوة ومالاً وعمراً	سبأ	٤٥

منازل الأعداد وأقسامها❊ (جدول ١٨)/ (جدول ١٩)

الرقم	المنزلة	الأعـــــــداد
١-	الآحاد	١ - ٢ - ٣ - ٤ - ٥ - ٦ - ٧ - ٨ - ٩
٢-	العشرات	١٠ - ١١ - ١٢ - ١٩ - ٢٠ - ٣٠ - ٤٠ - ٦٠ - ٧٠ - ٨٠ - ٩٩
٣-	المئات	/١٠٠ ٢٠٠ / ٣٠٩ / ٩٥٠ (ألف سنة إلا خمسين عاماً)
٤-	الألوف	/١٠٠٠ ٢٠٠٠ / ٣٠٠٠ / ٥٠٠٠ / ٥٠٠٠٠ / ١٠٠٠٠٠
الرقم	أقسام العدد	الأعـــــــداد
١-	المفرد	/١ ٢ / ٣ / ٤ / ٥ /٦ / ٧ / ٨ / ٩ / ١٠ / ١٠٠ /٢٠٠ ٣٠٩ / ١٠٠٠/ /٢٠٠٠ / ٣٠٠٠/ ٥٠٠٠ ١٠٠٠٠٠/ (بضع)❊

٢-	المركب	١١/ ١٢/ ١٩/
٣-	العقد	٢٠ / ٣٠ / ٤٠ / ٥٠٠٠٠ / ٦٠ / ٧٠ / ٨٠
٤-	المعطوف	٩٩

* مع ترك المكرّر منها . * بضع (٣-٩) تُذكّر وتؤنّث .

الأعداد الكسريّة (جدول ٢٠)

الرقم	العدد الكسريّ	الرقم	العدد الكسريّ
١-	١/١٠	٦-	١/٣
٢-	١/٨	٧-	١/٢
٣-	١/٦	٨-	٢/٣
٤-	١/٥	-	
٥-	١/٤	-	

وبعد ،

فعجائب القرآن لا تنفد ، ولا تبلى على كثرة الردّ ، وحسبنا هنا أن نشير إلى أهمّ النتائج التي تمخّضت عنها هذه المدراسة في أعداد القرآن الحسابيّة بعد أن عزّزنا ذلك بالجداول التوضيحيّة :

١- عناية القرآن الباهرة بالضبط والإحصاء والتصنيف .

٢- اشتمال القرآن على كثير من الأعداد والمسائل والعمليّات الحسابيّة .

٣- دعوة القرآن إلى الدّقة المتناهية وذلك من خلال بيان : المواريث ، والكفّارات ، والحدود ، والشهود ، والعدد .

٤- شمول الأعداد الحسابيّة جميع المخلوقات والكائنات :

أ- مظاهر الطبيعة .

ب- النماذج البشرية .

ج- الكائنات الحيّة .

٥- التفصيل الدقيق لحياة الإنسان وأطواره وأحواله .

٦- الإحصاء الدقيق للمدد الزمنيّة للخلق ، والأيام واللّيالي ، والأقوام السّابقة ، والأنبياء والرّسل ، والموتى الذين أحياهم الله .

٧- التصوير الدقيق لمشاهد القيامة وأحوال النّار .

الهوامش:

(١) انظر : الموسوعة العربيّة الميسرة ، بإشراف محمد شفيق غربال ، دار الشعب ، صورة عن ط ١٩٦٥ ، ج ١ ، ص ٧١٦-٧١٧ . وانظر : د . توفيق الطويل ، في تراثنا العربي الإسلامي ، عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م ، ص ٢٣٨-٢٤٠ .

(٢) انظر مثلاً من كتب المعاصرين : د . ياسين درادكة ، الميراث في الشريعة الإسلاميّة .

(٣) د . محمد علي أبو حمدة ، من أساليب البيان في القرآن الكريم ، ط ١ ، جمعية عمال المطابع التعاونية ، عمان ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م ، ص ٣٤-٣٥ .

(٤) انظر : شرح ابن عقيل ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، ص ٤٠٥-٤٢٢ . وشرح الكافية في النحو لابن الحاجب ، وشرح الأشموني على ألفية ابن مالك .

(٥) عبّاس حسن ، النّحو الوافي ، ط ٣ ، دار المعارف ، ج ٤ ، ص ٥١٧ .

(٦) انظر : محمد الصالح العثيمين ، القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى ، ص٦ . وانظر : د . عمر الأشقر : العقيدة في الله ، ص ١٧ . وانظر : د . محمد نعيم ياسين : الإيمان ، أركانه حقيقته نواقضه ، ص ١٥ .

(٧) ابن كثير ، مختصر ابن كثير ، تحقيق محمد علي الصابوني ، دار الفكر - بيروت ، م ٣ ، ص ٦٣٥ .

(٨) محمد علي الصّابوني ، صفوة التفاسير ، دار الفكر- بيروت ، م ١ ، ص ١٥٦ .

المَحْظوراتُ

اللُّغويَّةُ في القُرآنِ والسُّنَّة

- مقام الذات الإلهيّة
- مقام النبوّة المشرّفة
- مقام الوالدين
- مقام التعامل مع النفس
- مقام التفاعل مع الناس
- مقام الانتفاع بالأحياء والأشياء

المَحْظوراتُ
اللُّغويَّةُ في القُرآنِ والسُّنَة

تتفرّدُ الرسالةُ الخاتمةُ بالتصوّر الصَّحيح للوجود ، والتنظيم الشّامل لحياة المخلوق ، والتقدير الدَّقيق لِقيَم الأحياء والأشياء ، والصياغةِ المتميِّزة لكيان المسلم في جوانب شخصيته المختلفة ، وأوجه صِلاته واتصاله ، وأنماط تعامله وتفاعله .

كما تتفرّد بالعناية الفائقة بالمنطق والبيان تلك النّعمة التي أمتنّ اللهُ بها على البَشَر ، وأمرَهم بتسخيرها في الخير وإعلاء الحقّ ، والذَّود عن حياض الدّين ، والذّب عن أعراض المؤمنين ، وفي كُلّ ما ينفع ويرفع ؛ لأنّها تضطلعُ بوظائف حيويّة ذات فاعلية مُذهلة ، فاللغةُ - في حَدِّ ابن جِني - «أَصواتٌ يُعبّرُ بها كلُّ قوم عن أَغراضهم» .[1]

في هذا التعريف الدقيق تمثُلُ طبيعةُ اللغة ، إذ هي أَصواتٌ تُنْتَجُ بكيفية مخصوصة ، وتمثُلُ فيه وظيفةُ اللغة ، فهي وعاء للفكر ، وأداة للتعبير عمَّا يَستسرِ في الحِجا ، ويعتلجُ في الجوانح .

وقد قرَّر القرآنُ أنَّه إذا أُحسنَ تسخيرها هَدَتْ إلى الرُّشد والاستقامة ، وإصلاح الأعمال ، وغُفران الذّنوب ، وحيازة الفوز العظيم :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ . (الأحزاب٧٠-٧١)

وإذا أُسيءَ تسخيرها هدمتْ صروح الفضيلة ، وأشاعت الفتن ، وبلبلتِ الأفكار ، وأسخَطت اللهَ سبحانه ، وأوردَتْ جهنّم :

عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال : «إنّ العبدَ ليتكلّمُ بالكلمةِ منْ

رضوانِ اللهِ لا يُلقي لها بالاً يرفعُ اللهُ بها درجات ، وإنَّ العبدَ ليتكلّم بالكلمةِ من سَخطِ اللهِ لا يُلقي لها بالاً يهوي بها في جهنّم» .(٢)

وانبجستْ من جواهر القرآن دعوةٌ ألزمَ بها العلماءُ الراسخون كلَّ عاقل حصيف «أنْ يختار اللَّفظ الذّي يتكلّم به ؛ لأنّ اللّسانَ عنوانُ الإنسان ، يترجمُ عن مجهوله ، ويُبرهن عن محصوله ، فيلزم أنْ يكونَ بتهذيب ألفاظه حَرياً ، وبتقويم لسانه ملياً» .(٣)

كما يلزمه أنْ يكون ذا بَصر بالألفاظ المذمومة ، والأفكار المسمومة حتى لا يردّدها ترديدَ الببغاء ، وهو لا يشعر بخطورتها وانحرافها .

ولعلّ أخطر تلك الألفاظ ما حُظِرَ في القرآن الكريم والسّنة المشرّفة ، وهي التي أطلقنا عليها تسمية المحظورات اللّغويّة ، وقصدنا بها : مجموعة الألفاظ والتراكيب الممنوعة التي وردَ نصٌّ صريحٌ بتحريم استعمالها ، أو كراهية تداولها .

وليست بواعثُ الحظر لذات تلك الألفاظ والتراكيب ، وإنَّما لدلالاتها ومراميها ، فالكلمةُ مؤتلفة من أحرف صمَّاء ، والتراكيبُ مؤتلفة من كلمات ، فإذا انتظمتْ في السياق سَرتْ فيها وقدةُ المعنى ، ودبَّت في أوصالها وشائجُ الرَّحم والتلاحم ، فتغتدي زهرةً نَضِرة تشعُ الضياء ، وتبثّ العَبق ,أو تغتدي حيّةً تسعى تنفثُ السُّم الزُّعاف .

أمَّا الفئات المولِّدة لهذه المحظورات اللغويّة فهي خليطٌ من أئمّة الكفر والضّلالة ، والنّفاق والشَّيطنة ، والسُّوء والجهالة ، ويندرج تحتها : طوائف من أهل الكتاب وكفار قريش ، والمنافقون ، وإبليس ، وفرعون ، والمتجبّرون ، وذوو الأهواء ، وعُبّادُ الشَّهوة والشُّهرة .

وأمَّا بواعثُ توليد المحظورات اللغويّة فكثيرة- كثرة المولّدين لها- ويمكن إجمالها في النقاط التالية :

- العداوة الصّريحة لله جلّ جلاله ولنبيّه ﷺ وللمؤمنين الموحّدين .
- شدّة الحقد وضراوة الغيظ على الدّين القويم الخاتم للرسالات .
- الكذب على الله تعالى ، والافتراء على أنبيائه ، واتّهام الصّالحين .

- سوء الأدب مع الله ورسوله ، وقلة الذّوق والحياء في معاملة الناس .
- اضطرام القلوب بالحسد الشّديد على ما آتى اللهُ نبيّه محمّداً ﷺ من فضله ، وجزيل عطائه .
- الاغترار بالملك والسّلطان والأموال وكثرة الرجال .
- التكبّر والمفاخرة ، وتعظيم النّفس ، والتعصّب للرأي .
- الجهل بالأحكام بسبب ضحالة التفكير ، وقلة العلم .
- التساهل في القيل والقال ، وكثرة السّؤال ، وإطلاق اللسان في الأعراض .
- التبرّم بالحياة ، وذمّ الزمان ، والسّخط على الدّهر .
- جحود الآيات ، ونكران النّعم ، والتمادي في الإفساد .

قال تعالى : ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ . (البقرة ١٠٩)

وقال تعالى : ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللّهِ يَجْحَدُونَ﴾ . (الأنعام٣٣)

مَقامات الحُظر:

ثمّة مجالات متعددة أو هي مقامات تدورُ في فلكها الألفاظ والتراكيب اللغوية المحظورة ، وهي مستنبطة من مدارسة الكتاب الحكيم والسُّنة المطهّرة مدارسةً مرتكزةً على التدبّر والتأمّل ، وهي : مقام الذات الإلهيّة ، ومقام النبوّة المشرّفة ، ومقام الوالدين ، ومقام التعامل مع النفس ، ومقام التفاعل مع النّاس ، ومقام الانتفاع بالأحياء والأشياء .

أولاً - مقام الذات الإلهيّة:

١- حَظْر ألفاظ الكُفر والشِّرك:

حظرَ القرآنُ الكريم على المؤمن النُّطقَ بكلمة الكفر على أي تركيب جاءت ، وفي أي صورة كانت ، فلا يقول كما يقول أهلُ الكتاب ومشركو العرب :

﴿اتَّخَـذَ اللّهُ وَلَدًا﴾ ، أو ﴿وَلَدَ اللَّهُ﴾ ، أو ﴿اتَّخَـذَ الرَّحْـمَنُ وَلَدًا﴾ ، أو ﴿عُـزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ﴾ ، أو ﴿الْمَسِـيحُ ابْنُ اللّهِ﴾ ، أو ﴿إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ﴾ أو ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ .

كـمـا حظرَ القـرآنُ على المؤمن الطعنَ في كـلام الله ، أو الطَّعنَ في النَّبيّ محمّد ﷺ كقول ملّة الكفر والشرك :

﴿سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ، أو ﴿سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ ، أو ﴿مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ .

فكلّ هذه الصيغ والألفاظ مرفوضة في دين التوحيد الحقّ ، ولا تصدرُ إلا عن كافر أفّاك ، أو مُشرك خرّاص :

﴿وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ * بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (الأنعام١٠٠-١٠١) .[٤]

٢- حَظْر ألفاظِ ادّعاءِ الربوبيّة والألوهيّة:

نصَّ القـرآن على أنْ ليس لمخلوق أن يدّعي الربوبيّـة أو الألوهيـة ؛ لأنَّ في ذلك الادعاء تطاولاً على الله الذي ليس كمثله شيء ، وحرَّمَ القرآنُ ذلك الفعل فعلَ فرعون ، وفعلَ كُلّ طاغية جبّار يغترُّ بحلم الله وإمهاله له ، فيعيث في الأرض فـســاداً ، ويُهلك الحـرثَ والنّسل ، ويدّعي أنّه الرّبُ الأعلى ، والإلهُ الأوحد ، ومعبودُ الجماهير :

قال تعالى : ﴿فَحَشَرَ فَنَادَى * فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى * فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَنْ يَخْشَى﴾ . (النازعات٢٣-٢٦)

- ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ . (القصص٣٨)

وقد جُعلَ جزاء من يتلّفظ بهذه الكلمات ، ويدّعي أنّه إلهٌ أن يردَ جهنّم جزاءً وفاقاً :

﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ . (الأنبياء٢٩)

٣- حَظْر وصف اللهِ سبحانه بألفاظ النقص (كالفقر والبخل):

فلله جلّ جلالُه صفاتُ الكمال والجَلال ، وليس كما وصفه اليهود بالفقر والبخل ، وهم أشدُّ الأمم بخلاً وحسداً وجُبناً ، ولقد أورثتْهم عباراتُهم الكاذبةُ هذه مزيداً من الذّلة واللعنة والسّخط ، ولم يُغنِ عنهم تفاصحُهم وتشدّقهم شيئاً ، بل كُتبَ عليهم ، و نُقم منهم بسببه :

- ﴿لقَدْ سَمعَ اللّهُ قَوْلَ الَّذينَ قَالُواْ إنَّ اللّهَ فَقيرٌ وَنَحْنُ أَغْنيَاء سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ الأَنبيَاءَ بغَيْر حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ الْحَريق﴾ . (آل عمران١٨١)

- ﴿وَقَالَت الْيَهُودُ يَدُ اللّه مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْديهمْ وَلُعنُواْ بمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَان يُنفقُ كَيْفَ يَشَاء﴾ (المائدة٦٤)

ومّما يماثلُ ألفاظَ يهود قولُ بعض الناس ، وهم يَدْعُون على بعضهم : «الله يُظلمك» . وهو خطأ بيّن ، فالله جلَّ جلاله هو أعدل العادلين ، قد حرَّم الظلمَ على نفسه ، فلا يظلم مثقالَ ذرّة .

٤- حَظْر قول: ما شاءَ اللهُ وشئت، أو ما شاءَ الله وشاءَ فلان:

نصَّ النبيّ الكريم أنّه ليس من حُسنِ التأدب مع الله أن تُعطفَ مشيئة المخلوق على مشيئة الله تعالى بحرف الواو الذي يفيد المشاركة ، وإنّما ينبغي أن يُؤتى بـ (ثُمّ) التي تفيدُ العطف مع التراخي ، ويستقلّ بها المعنى ، ويزول الوهم .

ذلك لأنَّ الواو العاطفة عند النحاة معناها مطلق الجمع تَعطف الشيءَ على مصاحبه ، وعلى سابقه ، وعلى لاحقه ، وتفيد الترتيب .[٥]

أمَّا ثُمَّ فهي حرف عطف يقتضي ثلاثة أمور : التشريك في الحكم ، والترتيب ، والمُهلة ، وفي كلّ منهما خلاف بين النحاة .[٦]

عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «لا تقولوا : ما شاء الله وشاء فلان ، ولكن قولوا : ما شاء اللهُ ثمّ شاءَ فلان» .[٧]

رويَ أنَّ بعضَ الأعراب قال للنبي ﷺ : «ما شاءَ الله وشئت . فقال : أجعلتني لله ندّاً؟ بل ما شاءَ الله وحدَهُ» .[٨]

فالواو مذمومة في هذا الموضع وما يشابهه . وهي مذمومة أيضاً في قول القائلين في أيامنا الحاضرة : أتوكل على الله وعليك ، وأقسم أن أخلصَ لله ولفلان ، وليس لنا إلاّ الله وأنت ، واعتمد على الله وعليك ، وهذا من خير الله وخير فلان . وهي جميعاً أحوج إلى «ثُمّ» من الواو!

٥- حَظْر قول «يا خيبة الدّهر»:

يعتورُ الخَورُ كثيراً من ضعاف النفوس عند البلاء ، فيدفعهم إلى سبّ الدّهر ، وتحميله تبعة مصائبهم ومآسيهم رغم علمهم أنّ الله سبحانه هو مصرّف الأمور ، ومُقلّب الأيام ، ومُوجد الزّمان ، فمن يسّب الدّهر فكأنّما سبّ الله عزّ وجل ، ومن هنا نُهي عن ألفاظ سبّ الدهر ، واتهام الأيام والليالي :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسولُ الله ﷺ :

«قال اللهُ عزّ وجل يؤذيني ابنُ آدم يقول : يا خيبةَ الدّهر ، فلا يقولنَّ أحدكُم يا خيبةَ الدّهر ، فإنّي أنا الدّهر أُقلّبُ ليلَه ونهارَه ، فإذا شئتُ قبضتُها» .(٩)

وإنَّك لتعجبُ حين تتصفحّ الجرائد والمجلات المعاصرة ، وتعثر على عشرات العبارات في ذم الزّمن ، وسبّ الدّهر ، ونَدْب الحظّ ، فتأسى حين تقرأ : الزمن الرَّدئ ، والزمن الجائر ، والدّهر الخداع ، والأيام السيئة ، والوقت المنحطّ .

وكلّ ذلك محض افتراء على الزمن ، وإنّما التقصيُر والعيبُ في الإنسان شاغل الزمان والمكان ، فما في حياته من فساد وخلل فبما اجترحتْ يداه . ولقد عبّر أحدُ الشعراء النابهين عن هذا المعنى بأبيات سائرة فقال :

نعيبُ زمانَنا والعيبُ فينا
وما لزماننا عيبٌ سِوانا
ونهجو ذا الزَّمانَ بغيرِ ذنبٍ
ولو نطقَ الزمانُ لنا هجَانا!(١٠)

ثانياً- مقام النبوّة المشرّفة:

أوجب القرآنُ الكريم لهذا النبيّ العظيم ، والسيّد القُرشيّ الكريم محمّد بن عبد الله مجموعةً من الآداب الخاصة ، ودعا كلَّ مؤمن بالله ومُحبّ لرسوله إلى التقيّد بها والحرص عليها ، فاستجاب لذلك النداء الإلهيّ الصحابةُ الكرام فتأدّبوا معه ، وأحسنوا صُحبته ، حتى نالوا أشرفَ تسمية ، وهي تسمية «الصَّحابة» ، أمّا الذين في قلوبهم مرض ، فقد أساءوا الأدب معه ، فحُصِرت ألفاظُهم وحُظِرتْ ، وكان من تلك الألفاظ :

١- حَظْر كلمة «راعنا»، وإحْلال كلمة «انظرنا» محلّها:

وراعنا من المراعاة وتعني الإمهال ، ولكنّ اليهود حرّفوها إلى السبّ والإهانة ، وقصدوا بها الرعونة والجنون والخَبل ، وصار ظاهرُ كلامهم يا محمّد : راعنا ، وباطنهُ يا محمّد : أنت أرْعَن .[١١]

فحرّم القرآنُ استعمال هذه الكلمة السَّيئة في مخاطبة النبي ﷺ ، وأحلّ مكانها : (انظرنا) منعاً للتشبّه بكلام يهود وأفعالهم ونواياهم الخبيثة .

قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا وَقُولُواْ انظُرْنَا وَاسْمَعُوا ْوَلِلكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (البقرة١٠٤)

كما حُظرت كلمات : (سمعنا وعصينا) ، و(اسْمَعْ غيرَ مُسْمَع) ، وغُيرّت إلى : (سمعنا وأطعنا) ، و(اسْمَعْ) . قال تعالى :

﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ . (النساء٤٦)

٢- حَظْر كلمة «أُذُن» وإحلال محلّها «أُذن خير»:

فقد كان المنافقون يؤذون النبي ﷺ ، ويتّهمونه بأنهُ أُذن سامعة لكلّ خبر ،

يصدّقُ بكلّ ما يسمع ، ويحسبون أنَّ مكرهم ينطلي عليه بالأيمان المغلّظة ، والكلام الخدّاع ، ففضحهم القرآن ، وكشف مكائدهم ، وتوعّدهم بنار جهنّم ، وبيّن لهم أنَّ هذا النبيَّ الكريم أُذنُ خَيْر يسمعُ الخير ، وُيصدّق اللَّهَ فيما يقول ، ويصدّقُ المؤمنين فيما يخبرونه :

﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ باللّه وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ . (التوبة ٦١)

وقد استعمل القرآنُ كلمة أُذن نفسها ، ولكنّه قرنَها بأحسن ما تُستعمل له الأذن ، وهو سماع الخير ، تلك الصفة التي اتّسم بها هذا النبيّ الكريم ، فانتقلت الكلمةُ بهذه الإضافة من التنكير إلى التعريف : أُذنُ خيرٍ .

٣- حَظْر عبارة المنافقين: ﴿لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ﴾:

وهي عبارةُ عبد الله بن أُبَيّ بن سَلول زعيم المنافقين التي يعني فيها أنّه الأعزّ ، وأنّ النبّي هو الأذل ، وأنه سيُخرج محمّداً وأصحابه من المدينة بعد غزوة بني المُصطلق .(١٢)

ولم يدرِ هذا المنافق ورهطه أنّ الله جعلَ الغلبة والتأييد والنصر المؤزّر للنبي ﷺ وأتباعه إلى يوم القيامة ؛ لأنهم أولياؤه الصَّالحون ، وعباده الموحدّون . قال تعالى :

﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ . (المنافقون ٨)

ومثلُ عبارة ابن سَلول السَّخيفة الهازئة عبارةُ المستعمرين وأذنابهم – في عصرنا الراهن– في الاستهانة بالأمة ، وتثبيط عزائم رجالها ، والنيل من عزّتها وكرامتها : «محمّد مات خَلَّف بَنات»!

٤- حَظْر ألفاظ التحية المؤذية : «السَّام عليكم»:

بيّن القرآن الكريم أنَّ اليهود كانوا إذا ألقوا التحية على النبي ﷺ لوَّوا بها ألسنتهم ، وأخرجوها عن مقصودها إلى الدعاء بالموت والخسف على نبي الله وأصحابه الأجلاء ، فيقولون :

«السَّامُ عليك» ، و«سام عليكم» فقالت لهم عائشة -رضي الله عنها- : «عليكم السَّام والذَّام واللّعنة» ، فقال رسولُ الله ﷺ : «إنه يُستجابُ لنا فيهم ، ولا يُستجاب لهم فينا» .(١٣)

والسَّام في اللغة هو : الموت .(١٤)

قال تعالى : ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾ . (المجادلة ٨)

وقد حُظِرَتْ ألفاظ التحية الجاهليّة الداعية إلى الإظلام والإجرام مثل : عِم صباحاً ، وعم مساءً ، وحلّت مكانها تحية الإسلام «السَّلام عليكم» : قال تعالى :

﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾ . (النور ٦١)

فهذه الجملة الخبريّة الدعائيّة السَّهلةُ المأنوسةُ المؤلّفة من كلمتين : «السَّلامُ عليكم» هي شريان التواصل في المجتمع المسلم تُحقّق الرّحمة والبركة والخير ، وتَفضُل التحايا الأخرى كصباح الخير ، ومساء الخير ، ومرحباً ، وأُسعدتم صباحاً ، والله بالخير ، وصباح النور ومساء النور ، وطاب نهارك!

ومن العجب الذي يُدمي القلب أن تسمع طائفة من أبناء العربيّة يلوكون ألسنتهم بالتحايا الأجنبيّة ، ويملأون بها أشداقهم من مثل : «هَاي ، وبَاي ، وألَو ، وسِي يُو»!

ثالثاً- مقام الوالدين:

وهو مقام حظي برعاية القرآن وعناية السّنة حيث وضُعت له الآداب التي تكفل تكريمه وتبجيله ، فقد دعا القرآن الكريم إلى الإحسان بالوالدين وبرّهما

وبخاصة في حالة الكِبَر ، ومخاطبتهما بأدب وقول طيّب ، وإلانة الجانب لهما ، والتواضع في حضرتهما ، والدعاء لهما بالرحمة .

فحظرَ القرآن على الابن أن يقولَ لوالديه كلمة : «أُفّ» ؛ لأنها شعارُ الضجر والتأفف والعقوق ، وعلامة على إنكار فضل الوالدين ، والاستهانة بما بذلا من جهد وسهر وتضحية .

وكلمة «أفّ» من أسماء الأفعال ، وهي : «ألفاظ تقومُ مقامَ الأفعال في الدلالة على معناها وفي عملها ، وتكون بمعنى الأمر كآمين بمعنى استجبْ ، وتكون بمعنى الماضي كشتّان بمعنى افترقَ ، وبمعنى المضارع كأوَّهْ بمعنى أَتوجَّع» .(١٥)

وأُفٍّ : اسم فعل مضارع بمعنى أتضجر وأتأفّف ، وفاعله ضميرٌ مُستتر تقديره أنا ، وفي أفّ عند العرب أربعون لُغة .(١٦)

وقد قُرئتْ أفّ على أوجه ثلاثة هي :

أ- أُفٍّ : وهي قراءة نافع (ورش وقالون) ، وحفص ، وأبو جعفر .

ب- أُفَّ : وهي قراءة ابن كثير ، وابن عامر ، ويعقوب .

ج- أُفِّ : وهي قراءة الباقين .(١٧)

قال تعالى : ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ . (الإسراء٢٣-٢٤)

كما دعت السّنة النبويّة إلى إحسان صَحابتهما ، والمجاهدة في خدمتهما ، والقيام بشؤونهما ، ووصل ودّهما : عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : «جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ يستأذنهُ في الجهاد ، فقال : أَحَيٌّ والداك؟ قال : نعم . قال : ففيهما فجاهد» .(١٨)

وقد كان حظرُ كلمة «أُفّ» عمليّاً في سيرة النبي ﷺ مع أزواجه وأصحابه وخَدَمه :

عن أنس ﵁ قال: «خدمتُ النبي ﷺ عشرَ سنين فما قال لي أُفٍّ، ولا لِمَ صنعتَ، ولا ألا صنعت».(١٩)

ومن المضحك المبكي في أيامنا هذه شيوعُ أغاني الغزل ذات المواويل التي يترنّم شُدَاتُها بمقطع «أُف يابا أُف»، تلك المواويل التي تزيّن الرذيلة، وتتغنّى بالخلوة بالمحبوب، وتحرّض على الضَّجر من الوالدين، ومخالفة أمرهما في اختيار شريك الحياة!

رابعاً- مقام التعامل مع النّفس:

حضَّ الإسلام على إيلاء النفس عناية بالغة؛ لأنَّها أحوجُ إلى التأديب والتهذيب، والحمل على الطّاعة، والمحاسبة على التقصير، ومراعاة ما يُحظر معها من ألفاظ مثل:

١- حظر كلمة «أنا» في المواطن الآتية:

أ- موطن التفاخر والتكبّر، فلا يفعل المسلم كما فعل إبليس حين أُمر بالسجود لآدم فتكبّر وتعاظم وتطاول قائلاً:

﴿أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾. (الأعراف١٢)

ولا يفعل فعلَ صاحب الجنتين ذلك المغرور بكثرة أمواله وأولاده حين قال مُفاخراً:

﴿أَنَا أَكْثَرُ منكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾. (الكهف ٣٤)

ب- موطن ادّعاء الألوهيّة، ومرّ من قبل ما حكاه القرآن الكريم عن فرعون اللّعين حين قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾. (النازعات٢٤)

ج- موطن الاستئذان: فليس من الأدب قول «أنا» إجابةً للسائل في الزيارة؛ لأنها لا تتضمّن جواباً، ولا يتميّز بها المرء من غيره، ولا يُعرف بها؛ ولأن فيها نوعاً من الكِبر، فيبدو كأنه معروف لا يحتاج إلى تعريف باسمه ونسبه!

وما أكثرَ ما جرّتْ «أنا» على الأفراد والشعوب من ويلات!

عن جابر رضي الله عنه قال: «أتيتُ النبي ﷺ في دَيْن كان على أبي، فدققتُ الباب، فقال: من ذا؟ فقلتُ: أنا. قال: أنا، أنا، كأنّه كَرِهها».[20]

٢- حَظْر قول: «خَبُثت نفسي»:

وذلك لأنّ الله تعالى كرّم النفس، وأراد لها الخير، وزودّها بما يمنع عنها الخبث والشّر، فلا ينبغي نسبة الخبث لها حتى لا تذلّ وتستخذي، أو تضعف أمام الشياطين، بل يُقال: لَقِسَت نفسي؛ لأنّ اللّقس ماديّ ناتج عن أحماض وتعب في المعدة تدعو للقئ. يقال: «لَقِستْ نفسُه من الشيء: غَثتْ وفترت وكسلت، فهي لَقِسَة».[21]

عن عائشة - رضي اللهُ عنها - قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا يقولنّ أحدُكم خَبُثتْ نفسي، ولكن ليقل لَقِسَت نفسي».[22]

ولعلك واجدُ اليوم - من بعض الشباب المتدينين المُزرين على أنفسهم - مَن يصفُ نفسَه بأنّها حَقيرة، وساقطة، وخَسيسة.

وفي هذا الإزراء المُهين اتهامٌ خطير للنفس، وامتهانٌ لكرامتها لا يجوز شَرعاً.

٣- حَظر تقييد الدّعاء: «اللهم اغفر لي إن شئت»:

رغّبتِ السُنة المطهرة في الإلحاح والعزم وإظهار الرغبة في الدعاء، ومنعَتْ تقييده بكلمة «إن شئت»؛ لأنّ الله تعالى هو الذي أمر بالدعاء، وخزائنه ملأى بالخيرات، ورحمته وسعتْ كُلّ شيءٍ، ولا يكرهُ من عباده كثرةَ دعائهم:

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال:

«لا يقولنّ أحدكُم اللّهم اغفر لي إنْ شئت، اللّهم ارحمني إنْ شئت، ليعزم المسألة فإنهُ لا مُكْرِهَ له».[23]

خامساً- مقام التفاعل مع الناس:

ثمة محظورات لغوّية يقتضي هذا المقامُ اجتنابها والحذر منها بالأسلوب المناسب ، لأنّ بعضها صار في حكم العادة المستحكمة والطباع المتمكّنة :

١- حَظْر تلقيب الحكام «بملك الملوك»، أو «شاهنشاه»:

وذلك لأنّ فيه تشبهاً بصفات الله عزّ وجل ، ولأنه يتنافى مع معنى عبودية المخلوق ، وخضوعه للخالق الواحد القهار ، والويلُ والذّل يوم القيامة لمن يتسّمى في دنياه بهذه الألقاب التعظيمية التي لا تليقُ إلا بجلال الله وحدَه :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : «أخْنى الأسماء يوم القيامة رجلٌ تسمّى مَلِك الأملاك» .(٢٤)

٢- حَظْر قول (سيّد) للفاسق والمبتدع والمنافق:

فالسيّد بحق هو الملتزم بالدين ، صاحب الخلق القويم ، الإيجابيّ في مجتمعه ، لا الذّي يخرجُ على أمر الله ، ويتبع هواه ، ويُبطن خلاف ما يظهر ، ويُحدث البِدع والمنكرات .

وإذا نُعِتُ الفسَقة والمنافقون بأنّهم سادة ، وأتّهم الشُّرفاء والأمناء ، فقد تُودّع من القائلين ، واختلّت الموازين ، وأُسخط ربّ العالمين :

عن بُريدة رضي الله عنه قال : قال رسولُ الله ﷺ : «لا تقولوا للمنافق سيّداً ، فإنه إنْ يكن سيّداً ، فقد أسخطتم ربّكم عزّ وجلّ» .(٢٥)

٣- حَظْر قول «عَبْدي وأَمَتي»:

وسرُّ ذلك أنَّ الناس جميعهم عبيدٌ لله لا فرق بينهم في العبودية ، وليس لأحد أن يتلّفظ بعبدي وأَمَتي ، وقد حرّم الإسلام الرّق ، وأمر بتحرير الرقاب .

واللفظُ الصائب أن يُقال : غلامي وجاريتي ، وفتاي وفتاتي :

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ قال : «لا يقولنّ أحدُكم عبدي وأَمَتي

كلّكم عبيدٌ لله ، وكُلُّ نسائكم إماءُ الله ، ولكنْ ليقل غُلامي وجَاريتي وفتايَ وفتاتي» .(٢٦)

فالإنسان عبدٌ لله حُرّ مكرّمٌ لا يُستعبد ولا يُسْتَذلّ ، بل له أعظم الحقوق ، وأخصّ الرعاية في الإسلام دينِ العدل والحرية ، وإنسانية الإنسان ، وكرامة الكائنات .

٤- حظر نَدْب الميّت بقول: واجبلاه، واسيّداه:

لما في ذلك من اتباع لعادات الجاهليّة في تعظيم الميّت والنياحة عليه وإطرائه ، وهو أحوج ما يكون إلى عفو الله ورحمته من أذى النياحة ، وهذا الأسلوب يُسمّى الندبة ، والمندوب هو : المتفجّع عليه ، نحو : وازيداه ، والمتوجّع منه نحو : واظهراه! وتتألف الندبة من :

أ - حرف الندبة : وا .

ب- الاسم المندوب : مثل سيّد . وهو المتفجّع عليه .

ج- ألف الندبة : واسيدا .

د- هاء السّكت : واسيداه ، وتلحق المندوب إذا وقف عليه .(٢٧)

عن أبي موسى رضي الله عنه أن الرسول ﷺ قال :

«ما من ميّت يموت ، فيقوم باكيهم ، فيقول : واجبلاه ، واسيّداه ، أو نحو ذلك إلا وُكِّلَ به ملكان يلهزانه : أهكذا كنت؟» .(٢٨)

فالمشروع لأهل الميّت حُزنُ القلب ، وبكاءُ العين ، وليس النياحة ، ولطم الخدود ، وشقّ الجيوب .

٥- حَظْر ألفاظ تكفير المسلم:

وذلك لحرمة وصف المسلم الموحّد بالكفر إلاّ بدليل قاطع لا يقبل التأويل ، فإذا دعا مسلمٌ أخاه : يا كافر ، أو يا عدوّ الله ، والمدعوّ بريءٌ من ذلك ، فقد افترى الداعي بهتاناً وإثماً مبيناً ، وباءَ بما دعا ووصفَ ونعَت .

والمسلمُ الداعيةُ إلى الله الحريصُ على هداية العالمين القائمُ على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليس قاضياً يحكمُ بالكفر والرِّدة عل أخيه فلان ، أو جاره أو صديقه ، أو مَنْ يعرف ومَنْ لا يعرف من الأساتذة والعلماء والموظفين والمواطنين لمجرد هفوات وقعوا فيها لا تخرجهم من دائرة الإيمان ، ولو نُصِحوا ، وبُيّنَ لهم الحقّ لاستبصروا واستقاموا ، ولا يحكمُ بكفر أحد لمجرد خلاف في الرأي معه .

وإنّك لتعجب - وفؤادُك يتفطّر - ممن يُكّفرُ مجتمعاً مُسلماً كاملاً لا يقلّ سكانه عن عشرة ملايين نسمة ، فيهم الطائع والقانت والسّاجد والراكع!

عن ابن عمر رضي اللهُ عنهما أنَّ النبي ﷺ قال : «إذا كَفرّ الرجلُ أخاه فقد باءَ بها أحدُهما» .[٢٩]

سادساً- مقام الانتفاع بالأحياء والأشياء:

رسم الإسلامُ للمسلم منهجاً دقيقاً في الانتفاع بما أنعم الُله على خلقه من غذاء ودواء وماء وهواء ، وما ذُلّل له من حيوان ، وما وُهبَ من نبات ، وما يُحيط به من جماد وفضاء . ويقوم هذا المنهج على :

- الإقرار بنعم الله وشكره عليها بعبادته وإطاعته .
- تصريفها في الحقّ والخير وحفظها من العبث والهلاك .
- مراعاة الأدب في الانتفاع بها بحسن سياستها ، وتوفية حقّها ، وحظر كُلّ ما يُخالف المنهج مثل :

١- حَظْر قول «مُطرنا بنوء كذا»:

والنَّوءُ من ناءَ النَّجم ، يقال : «ناء النَّجمُ : سقطَ في المغرب مع الفجر مع طلوع آخر يقابله في المشرق . والنّوء : النجمُ إذا مالَ للغروب . (ج) أنواء » .[٣٠]

كان الجاهليّون ينسبون المطر إلى النجوم والكواكب ، فأُمرَ الصحابة بالإقلاع عن التلّفظ بذلك ؛ لأنّ المطر من الله ، وليس من فعل الكواكب ، ولا من تقدير

الرياح والسُّحب والأنواء ، فكلٌّ شيء بتقدير العزيز العليم ، والعواملُ الجويّة مسيّرات بأمره وقدرته :

عن زيد بن خالد الجهنّي رضي الله عنه قال : صلَّى لنا رسول الله ﷺ بالحُديبية على إثر سماءٍ كانت من اللّيل ، فلما انصرفَ أقبل على الناس فقال : «هل تدرون ماذا قالَ ربُّكم عزَّ وجلّ؟ قالوا : اللهُ ورسولهُ أعلم . قال : أصبح من عبادي مؤمنٌ بي وكافر ، فأمّا من قال : مُطرنا بفضل الله ورحمته ، فذلك مؤمنٌ بي كافرٌ بالكواكب ، وأمَّا من قال : مُطرنا بنوء كذا وكذا ، فذلك كافرٌ بي مؤمنٌ بالكواكب» .(٣١)

وإنَّ المرءَ الغيور ليأسف على شبانٍ كثيرين وشابات ممّن تعلّقوا «بالحظّ» ، و«الأبراج» التي تروّج لها الصحف السخيفة ، والمجلات العابثة ، فربّما مرض أحدهم أياماً بسبب «بُرْجه» الذي أفزعه ، والكلام العاثر الذي سمعه!

ولم يتيقنّ هذا المسكين أنّ النفع والضرر بيد الله وحده ، وأنّ السعادة في الدارين تكون باتباع المنهج الصحيح الذي يهدي للتي هي أقوم في فهم مظاهر الحياة ، وتفسير ظواهر الكون .

٢- حَظْر تسمية العِنب كَرما:

ذلك لأنّ الخمرة تُستخرج من العنب ، وفي التسمية ثناءٌ على الخمرة أمّ الخبائث ، وتذكيُر بها ، وهي المحرمّة تحريماً قطعيّاً ، والأوْلى تسمية المؤمن كَرماً لما في قلبه من الهُدى والنور والخير ، ففي ذلك حافز له نحو السخاء والجود والكرم ، فلا يُسمّى العنب كرماً ، ولا يُقالُ : كرْم العنب ، وإنَّما بستان العنب ، أو حديقة العنب ، أو حائط العنب :

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «لا تسمّوا العنبَ الكَرْمَ ، فإنّ الكَرْمَ الرجلُ المسلمُ « .(٣٢)

ومن الألفاظ الشائعة المحرمّة ما يُطلق اليوم على الخمرة من تسميات مثل : «المشروبات الروحيّة» ، و«مشروب الكيف» ، إغراءً بمقارفتها ، وتحبيبها إلى

النفوس ، وإنْ هي إلا مُفسدة للروح ، مُهلكة للبدن ، مُضيّعة للمال ، مُمحقة للخُلق ، مَجْلبة لأمراض القلب والشرايين .

٣- حَظْر لعن الدّواب بقول: اللهم العنها، أو ملعونة:

ليس من خُلق المؤمن اللّعنُ والشتم والقذف حتى مع الحيوان والأشياء الجامدة ، فإنَّ لها كرامةً ومكانة ، وهي إنّما سُخّرت لينتفع بها الإنسان .

فلا يجوز التلفظ باللّعن على الدّابة ، أو السيارة ، أو الطائرة ، أو المِروحة ، أو المِكنسة ، أو أي شيءٍ من مخلوقات الله إلاّ مَنْ صُرِّحَ بلعنهم كإبليس والكفرة والمشركين وأصحاب المعاصي غير المُعينّين كآكلي الربّا الذين يسمّونه اليوم «فوائد» ، وهي تسمية فاسدة باطلة .

عن عمران بن حُصين ﵁ قال :

«بينما رسولُ الله ﷺ في بعض أسفاره ، وامرأةٌ من الأنصار على ناقةٍ فضجرتْ فلعنتها ، فسمع ذلك رسولُ الله ﷺ فقال : خُذوا ما عليها ، ودعوها فإنها ملعونة . قال عمران : فكأني أراها الآن تمشي في النّاس ما يعرضُ لها أحد» .(٣٣)

وفي هذا الحديث دلالة بيّنة على رعاية الإسلام الفائقة للحيوان ، إذ لا يجوز لعنه فضلاً عن ضربه ، أو تجويعه ، أو إثقاله بالأحمال .

وبعد ،

فقد تناولت هذه المدارسة المحظورات اللغويّة في القرآن والسُّنة ، وبينّت بواعث الحْظر ومقاماته مستشهدة بالآيات الصريحة والأحاديث الصَّحيحة ، وتوصّلت إلى النتائج التالية :

١ . تقدير الإسلام لدور الكلمة الطيبة واللفظة اللائقة في حياة المسلم وفي أوجه تعامله مع الناس والكائنات الأخرى .

٢ . حرص الإسلام على توجيه المسلم إلى انتقاء ألفاظه ، ووزنها بميزان المنهج

الصحيح ؛ لأنّ ألفاظه معدودة عليه ، مرصودة له : ﴿ما يَلْفِظُ من قولٍ إلا لديهِ رقيبٌ عتيدٌ﴾ . (ق آية ١٨)

٣ . تبصير المسلم بالألفاظ المحظورة الداعية إلى الكفر والشرك ، والانحلال وسوء الأدب ، والانهزام النفسيّ ، والتقديس الفرديّ ، والعدوان على المخلوقات .

٤ . دعوة المسلم إلى مخالفة أهل الضّلال في ألفاظهم اللغويّة المنحرفة ، وأفكارهم الاعتقاديّة الباطلة .

٥ . الكشف عن هُوّيات مولّدي المحظورات اللّغوية ، وبيان بواعثهم الخبيثة ، ودوافعهم البغيضة ، والوقوف على أساليبهم في التوليد والتّلاعب بالألفاظ .

٦ . إيراد مجموعة من الألفاظ الخطيرة المتداولة في المجتمعات المعاصرة ؛ ليكون المسلم على بيّنة منها .

٧ . حرص الإسلام على حرية الإنسان ، وتوفية حقوقه كاملة غير منقوصة ، وتحريم المساس بدمه ، أو ماله ، أو عِرضه ، أو مشاعره ، ولو بلفظ يسير .

٨ . عناية الإسلام بحقوق الحيوان ، والإحسان إليه ، ومنع أذِيَّته ولعنه ، عنايةً سبقتْ ظهورَ جمعيات الرفق بالحيوان في الغرب بمئات السنين .



الهوامش:

(١) الخصائص ، ابن جني (٣٩٢هـ) ، تحقيق محمد علي النجار ، طبعة دار الكتب المصرية ، ١٣٧١هـ/ ١٩٥٢م ، ج ١ ، ص ٣٣ .

(٢) مختصر صحيح البخاري المُسمّى (التجريد الصّريح للجامع الصحيح) للإمام الزبيديّ (ت ٨٩٣هـ) شرح لجنة من العلماء ، ط ١ ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ١٩٨٧م ، باب الآداب العامة رقم ٥٩ ، حديث رقم ١٨ ، ص ٥٤٢ .

(٣) أدب الدنيا والدين ، الماوردي (٤٥٠هـ) شرح وتعليق : محمد كريم راجح ، ط ٥ ، دار اقرأ ، بيروت ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م ، ص ٢٨٨ .

(٤) وردت آيات كثيرة في تقرير التوحيد والردّ على أهل الكتاب والمشركين ، انظر مثلاً :

* البقرة ١١٦ * النساء ١٧١ * المائدة ١٨ / ٧٣ * التوبة ٣٠ * الكهف ٤ * مريم ٨٨ * الأنبياء ٢٦ * الزّمر ٤ * الإخلاص ١-٤ .

(٥) انظر : مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، ابن هشام الأنصاريّ (٧٦١هـ) ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار إحياء التراث العربيّ ، بيروت ، ج٢ ، ص٣٥٤ .

(٦) المصدر السَّابق نفسه ، ج١ ، ص ١١٧ .

(٧) رواه أبو داود بإسناد صحيحٍ في كتاب الأدب (نزهة المتقين في شرح رياض الصالحين ١١٨٨/٢) .

(٨) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ، ابن تيمية (٧٢٨هـ) ، نشر وتوزيع رئاسة إدارات البحوث العلميّة والإفتاء والدعوة والإرشاد ، السعودية ، ص ١١٨ .

(٩) مختصر صحيح مسلم ، ط ١ ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ١٩٨٧م ، كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها رقم ٣٣ ، حديث رقم ١٢٣٤ ، ص ٣١٩ .

(١٠) ديوان الشافعي ، جمعه وعلّق عليه محمد عفيف الزعبي ، ط ٣ ، دار الجيل ، ومؤسسة الزعبي ، ١٩٧٤م ، ص ٨٢ .

(١١) انظر : مختصر تفسير ابن كثير ، محمد علي الصابوني ، دار الفكر ، بيروت ، م١ ، ص ١٠٢- ١٠٣ .

(١٢) انظر : السيرة النبوية لابن هشام ، تحقيق مصطفى السَّقا ورفاقه ، دار الكنوز الأدبية ، م٢ ، ج١ ، ص ٢٨٩- ٢٩٦ .

(١٣) مختصر ابن كثير ، م ٣ ، ص ٤٦٢ .

(١٤) مختار الصحاح للرازي ، مادة (سوم) .

(١٥) شرح ابن عقيل ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، دار إحياء التراث العربي ،(د .ت) ، ج٢ ، ص ٣٠٢-٣٠٥ .

(١٦) انظر : إعراب القرآن الكريم وبيانه ، محيي الدين الدرويش ، ط٦ ، دار اليمامة ، ودار ابن كثير ، دمشق - بيروت ، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م ، ص ٣٤٦ .

(١٧) انظر : كتاب المقتطف من إملاء ما مَنَّ به الرحمن ، محمد عبد الله الصدّيق ، ط١ ، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م ، ص ١١٨/ ١١٩ .

(١٨) مختصر صحيح مسلم ، كتاب البر والصلة والآداب رقم ٣٨ ، حديث ١٣٠٨ ، ص٣٤٣ .

(١٩) مختصر صحيح البخاري ، كتاب الأدب ٥٨ ، حديث ٢٣ ، ص ٥٣٤ .

(٢٠) رواه البخاري (٦٨/٨) . وانظر المقالة القيمة عن كلمة «أنا» في كتاب : مقالات الإصلاح ، د . السعيد عبادة ص ٣٥-٦٢ .

(٢١) المعجم الوسيط ، مادة (لقس) .

(٢٢) مختصر صحيح مسلم ، كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها ٣٣ ، حديث ١٢٣٥ ، ص ٣٢٠ .

(٢٣) مختصر صحيح البخاري ، كتاب الدعوات ٧١ ، حديث ٩ ، ص ٥٧٢ .

(٢٤) المصدر السابق نفسه ، كتاب الأدب ٥٨ ، حديث ٤٨ ، ص ٥٣٨ .

(٢٥) رواه أبو داود بإسناد صحيح في الأدب . (نزهة المتقين٢/١١٧٦) .

(٢٦) مختصر صحيح مسلم ، كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها ٣٣ ، حديث ١٢٣٤ ، ص ٣١٩/٣٢٠ .

(٢٧) انظر : شرح ابن عقيل ، ج٢ ، ص ٢٨٢-٢٨٦ .

(٢٨) رواه الترمذي في الجنائز ، وقال حديث حسن . (نزهة المتقين ٢/١١٤٢) .

(٢٩) مختصر صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ٢ ، حديث ٣٧ ، ص ٢٦ .

(٣٠) المعجم الوسيط ، مادة (ناء) .

(٣١) مختصر صحيح البخاري ، باب بدء الأذان رقم ١٠ ، حديث ١١٣ ، ص ١٢٨ .

(٣٢) مختصر صحيح مسلم ، كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها رقم ٣٣ ، حديث ١٢٣٣ ، ص ٣١٩ .

(٣٣) المصدر السابق نفسه ، كتاب البر والصلة والآداب رقم ٣٨ ، حديث ١٣٢٨ ، ص ٣٤٨ .



الفهرس


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com







دراسات

د. أحمد عطية السعودي

جمالية الخطاب القرآنيّ

Designed By
Bayan Zawa

لوحة الغلاف للفنان فاروق لمبز / الأردن